سورة الرعد

مدنية وآياتها ثلاث وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

اللغــــة :

(عمد) بفتحتين وقد اضطربت أقوال علماء اللغة فقــال بعضهم هو جمع عماد على غير قياس والقياس أن يجمع عــلى عمد بضم العين والميم وقيل إن عمــداً جمع عماد في المعنى أي انه اسم جمع لا جمــع صناعي والذي في القاموس والتاج : « العمود ما يقوم عليه البيت وغيره وقضيب الحديد وجمعــه أعمــدة وعَمَد وعُمُد » وقال بعضهــم : والعَمَد جمع عمود ولم يأت في كلام العرب على هذا الوزن إلا أحرف أربعــة : أديم وأدَم وعَمُود وعَمَد وأفيق وأفق وإهاب وأَهَب ، وزاد الفراء خامساً : قضيم وقَضَم يعني الصكاك والجلود .

(صنوان) : الصنو بكسر الصاد وفتحها وضمها نخلة لها رأسان وأصلهما واحد والاثنان صنوان والجمــع صنوان بكسر الصاد فيهما وفي المختار « إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحــد فكل واحدة منهن صنو والاثنتان صنوانِ والجمع صنوانٌ » أي فهو معرب وفي الأساس : « شجر صنوان : من أصل واحــد وكل واحــد صنو ومن المجاز : هو شقيقه وصنوه قال :

أتتركني وأنت أخي وصنوي فيا للنــاس للأمــر العجيــب

وركيتان صنوان متقاربتان وتصغيره: "صُنَيّ" قالت ليلى الاخيلية:

أنابغ لم تنبــغ ولم تك أولا وكنت صُنَيّاً بين صُدَّين مجهلا

أي ركياً مجهولاً بين جبلين ، وقال بعض اللغويين : « والصنو الفرع يجمعه وفرعاً آخر أصل واحد والمثل » وفي الحديث « عم الرجل

صنو أبيه » أي مثله أو لأنهما يجمعهما أصل واحد والنخيل والنخل بمعنى واحد والواحدة نخلة قال :

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

وعبارة أبي حيان :

« الصنو الفرع يجمعه وآخر أصل واحد وأصله المثل ومنه قيل للعم صنو وجمعه في لغة الحجاز صنوان بكسر الصاد كقنو وقنوان وبضمها في لغة تميم وقيس كذئب وذؤبان ويقال صنوان بفتح الصاد وهو اسم جمع لا جمع تكسير لأنه ليس من أبنيته » وقال : « ونظير هذه الكلمة قنو وقنوان ولا يوجد لهما ثالث » .

(الأكل) : بضم الكاف وسكونها وفي المصباح : الأكل بضمتين واسكان الثاني للتخفيف : المأكول .

الاعراب :

(المر تلك آيات الكتاب) المر : تقدم اعرابها والقول فيها وفي أوائل السور عموماً واسم الاشارة مبتدأ وآيات الكتاب خبر . (والذي أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) الواو عاطفة من عطف الجمل على الجمل والذي مبتدأ وجملة أنزل اليك صلة ومن ربك جار ومجرور متعلقان بأنزل أيضاً والحق خبر الذي ولكن الواو حالية ولكن حرف استدراك ونصب وأكثر الناس اسمها وجملة لا يؤمنون خبرها . (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) الله مبتدأ والذي خبره ويجوز أن يكون صفة والخبر سيأتي وجملة

رفع السموات صلة وبغير عمد هذا الجار والمجرور في محل نصب على الحال من السموات أي رفعها خالية من عمد وجملة ترونها فيها وجهان أولهما أن تكون مستأنفة ويكون الضمير عائداً على النون أو نصباً على الحال من السموات أي مرئية لكم ويجوز أن تكون صفة لعمد إذا كان الضمير عائداً اليها والجملة كلها مستأنفة مسوقة للشروع في ذكر دلائل العالم العلوي تمهيداً لذكر دلائل العالم السفلي • (ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي واستوى فعل ماض وفاعل مستتر وعلى العرش متعلقان باستوى وسخر الشمس والقمر عطف على استوى وكل مبتدأ وتقدم الكلام في تسويغ الابتداء به وجملة يجري خبر والأجل متعلقان بيجري ومسمى صفة • (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) الجملة مستأنفة أو خبر لله على ما تقدم ويدبر الأمر فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ويفصل الآيات عطف ولعل واسمها وبلقاء ربكم متعلقان بتوقنون وجملة توقنون خبر لعلكم • (وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً) هو مبتدأ والذي خبره وجملة مدّ الأرض صلة وجعل عطف على مدّ وفيها متعلقان بجعل ورواسي مفعول به وأنهاراً عطف عليه • (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) يجوز في هذا الجار والمجرور أن يتعلق بجعل بعده والتقدير وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من اثنين لأنه في الأصل صفة له ويجوز أن يتم الكلام عند قوله من كل الثمرات فيتعلق بجعل الأولى والتقدير أنه جعل في الأرض كذا وكذا ومن كل الثمرات ويكون جعل الثاني مستأنفاً وفيها متعلقان بجعل على كل حال وزوجين مفعول جعل واثنين صفة لزوجين • (يغشي الليل النهار) الجملة مستأنفة أو حال من فاعل

الأفعال قبلها والفاعل ليغشي مستتر والليل مفعول أول والنهار مفعول ثان والمعنى يلبسه مكانه فيصير أسود مدلهماً بعد ما كان أبيض منيراً والأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي ولذلك جعلناه المفعول الأول وان كان الكلام يحتمل الثاني . (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) إن وخبرها المقدم ولآيات اللام المزحلقة للتأكيد وآيات اسم ان المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يتفكرون صفة لقوم . (وفي الأرض قطع متجاورات) الواو عاطفة وفي الأرض خبر مقـدم وقطع مبتدأ مؤخر ومتجاورات صفة لقطع أي بقاع مختلفة متباينة مع كونها متجاورة . (وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) وجنات عطف على قطع ومن أعناب صفة وزرع ونخيل معطوفان أيضاً وصنوان صفة لنخيل وغير عطف وصنوان مضاف إليه . (يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) جملة يسقى صفة لجنات وما بعدها وبماء متعلقان بيسقى وواحد صفة لماء ونفضل بعضها فعل مضارع وفاعـل مستتر ومفعول به وعلى بعض متعلقان بنفضل وفي الأكل حال من بعضها أي نفضل بعضها مأكولاً أو وفيه الأكل ويجوز أن يتعلق بنفضل لأنه ظرف له . (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) تقدم اعراب مثيلتها قريباً .

البلاغـة :

١ ــ في قوله تعالى « ثم استوى على العرش » استعارة مكنية أو تخييلية حسب تعريف الأقدمين لها فالمستعار الاستواء والمستعار منه كل جسم مستو والمستعار له الحق سبحانه ليتخيل السامع عند سماع لفظ هـذه الاستعارة ملِكاً فرغ من ترتيب ممالكـه وتشييد ملكه

وجميع ما تحتاج اليه رعاياه وجنده من عمــارة بلاده ، وتدبير أحوال عباده استوى على سرير ملكه استواء عظمة فيقيس السامع ما غاب عن حسه من أمر الإلهية على ما هي متخيلة ولهذا لا يقع ذكر الاستواء على العرش إلا بعد الفراغ من خلق السموات والأرض وما بينهما وإن لم يكن ثمة سرير منصوب ولا جلوس محسوس ولا استواء على ما يدل عليه الظاهر من تعريف هيئة مخصوصة ٠

٢ ــ وفي قوله تعالى « بغير عمد ترونها » فن رفيع تقدم ذكره وهو نفي الشيء بايجابه أي رفع السموات خالية من العمد فالوجــه انتفاء العمد والرؤية جميعاً فلا رؤية ولا عمد ٠

وقد أثارت هذه الآية في النفس موضوع غزو القمر وكيف ارتاد الانسان الفضاء ورأى عجائب صنع الله وشهد الأرض معلقــة والقمر معلقاً وكذلك الكواكب والنجوم الأخرى معلقات بغــير سناد يسندها ولا عمد تقوم عليها مصداقاً لقول الله « بغير عمد ترونها » ٠

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

اللغـــة :

(المثلات) : جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء وفي القاموس : المثلة العقوبة وما أصاب القرون الماضية من العـذاب وهي عبر يعتبر بها ، وشرحها الزمخشري شرحاً لطيفاً فقـال : المثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة . وقال غيره : المثلة نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثالاً يرتدع غيره به . وقال ابن الأنباري : المثلة كسمرة العقوبة التي تبقي في المعاقب شيئاً بتغيير بعض خلقه من قولهم مثـل فلان بفـلان إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه .

الاعراب :

(وان تعجب فعجب قولهم) الواو استئنافية وإن شرطية وتعجب فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره أنت يا محمد والفاء رابطـة وعجب خبر مقدم وقولهم مبتدأ مؤخر وجملة فعجب قولهم في محل جزم جواب الشرط الجازم . (أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد) هـذه الجملة مقول للقول ولك أن تعربها بدلاً منه والهمزة للاستفهام الانكاري وإذا ظرف لما يستقبـل من الزمان خافض لشرطه ومتعلق بجوابه وهو مدلول قولـه أئنا لفي خلق جديد والتقـدير نبعث أو نحشر واختار أبو حيـان أن تكون إذا متمحضة للظرف وليس فيهـا معنى للشرط فالعامل فيها محذوف يفسره ما يدل عليه الجملة الثانية وتقريره أنبعث أو أنحشر ، وكنا كان واسمهـا وتراباً خبرها ، أئنا الهمزة للاستفهام الانكاري وان واسمها واللام المزحلقة وفي خلق خبر إن وجديد صفة لخلق . (أولئك الذين كفروا بربهم) أولئك مبتدأ والذين خبره وجملة

كفروا صلة وبربهم متعلقان بكفروا • (وأولئك الأغلال في أعناقهم) الواو عاطفة وأولئك مبتدأ والأغلال مبتدأ ثان وفي أعناقهم خبر الأغلال والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الاول والأغلال جمع غل وهو طوق من حديد يجعل في العنق • (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) الواو عاطفة أيضاً وأولئك مبتدأ وأصحاب النار خبره وهم مبتدأ وفيها متعلقان بخالدون وخالدون خبرهم وجملة هم فيها خالدون خبر ثان لأولئك أو حال • (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الواو عاطفة ويستعجلونك فعل وفاعل ومفعول به وبالسيئة متعلقان بيستعجلونك لأنه ظرف للاستعجال • (وقد خلت من قبلهم المثلات) الواو للحال وقد حرف تحقيق وخلت فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة للالتقاء الساكنين ومن قبلهم متعلقان بخلت والمثلات فاعل خلت • (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) الواو للحال أيضاً وان واسمها واللام المزحلقة وذو مغفرة خبر إن وللناس جار ومجرور متعلقان بمغفرة وعلى ظلمهم حال من الناس والعامل فيها مغفرة لأنه العامل في صاحبها والمعنى ظالمين لأنفسهم ومعنى على هنا المصاحبة أي كمع • (وان ربك لشديد العقاب) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وشديد العقاب خبرها •

الفوائد :

في هذه الآية فن من فنون العرب في كلامهم وهو القلب وذلك في قوله تعالى : « وأولئك الأغلال في أعناقهم » لأن الأعناق هي التي تكون في الأغلال ولا عكس ومنه قول رؤبة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه   كأن لون أرضه سماؤه

أي كأن لون سمائه لون أرضه فعكس التشبيه مبالغة وحذف المضاف .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

اللغـــة :

(الأرحام) : جمع رحم بفتح الراء وكسر الحاء وبكسر الراء وسكون الحاء مستودع الجنين في أحشاء الحبلى وهي مؤنثة والرحم أيضاً القرابة والمراد هنا الأول .

(سارب) : ذاهب في سربه بالفتح أي في طريقه ووجهه يقال سرب في الأرض سروباً وفي المصباح : سرب في الأرض سروباً من باب

قعد ذهب ، وسرب الماء سروباً جرى وسرب المال سرباً رعي نهاراً بغير راع فهو سارب وسرب تسمة بالمصدر والسرب أيضاً الطريق ومنه يقال خل سربه أي طريقه والسرب بالكسر النفس وهو واسع السرب أي رخيّ البال ويقال واسع الصدر بطيء الغضب والسَرَب بفتحتين بيت في الأرض لامنفذ له وهو الوكر •

« معقبات » : فيها احتمالان : أحدهما أن يكون جمع معقبة بمعنى معقب والتاء للمبالغة كعلامة ونسابة ، أي ملك معقب ، ثم جمع هذا كعلامات ونسابات• والثاني أن يكون جمع معقبة صفة لجماعة ثم جمع هذا الوصف كجمل وجمال وجمالات وقال الزمخشري : « وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه ، وتقديره من أمر الله أي من قضاياه ونوازله أو على التهكم به » •

الاعراب :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) الواو استئنافية ويقول الذين فعل وفاعل وعدل عن الاضمار الى الموصول ذماً لهم بكفرهم بآيات الله وجملة كفروا صلة ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل وآية نائب فاعل ومن ربه صفة لآية • (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) إنما كافة ومكفوفة وأنت مبتدأ ومنذر خبر ولكل خبر مقدم وقوم مضاف اليه وهاد مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة • (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) الله مبتدأ وجملة يعلم خبر وفاعل يعلم مستتر تقديره هو وما تحتمل ثلاثة أوجه متساوية أحدها أن تكون موصولة في محل نصب مفعول يعلم وجملة تحمل كل أنثى صلة والعائد محذوف أي تحمله والثاني أن تكون مصدرية وهي مع مدخولها مفعول يعلم فالجملة بعدها لا محل

لها ولا حاجة الى العائد والثالث أن تكون استفهامية إما مبتدأ وجملة تحمل خبر والجملة معلقة للعلم واما مفعول مقدم لتحمل • (وما تغيض الأرحام وما تزداد) عطف على الجملة السابقة وتسري على « ما » الأوجه المتقدمة وغاض وزاد يستعملان متعديين ولازمين ومعنى غيض الأرحام وازديادها أفاض فيه المفسرون وخلاصته أن المراد به غذاء الولد في الرحم فإذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد وإذا لم تحض يزداد الولد وينمو وقيل ما يتعلق بمدة الحمل والرجوع لمعرفة التفاصيل الى المطولات أولى • (وكل شيء عنده بمقدار) كل مبتدأ وشيء مضاف اليه وعنده ظرف متعلق بمحذوف صفة لشيء أو لكل وبمقدار خبر والمراد بالعندية العلم بكمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين أو العلم بوقت كل شيء وحالته المعينة • (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) عالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف أي هو والغيب مضاف اليه والشهادة عطف والكبير خبر ثان للمبتدأ المحذوف والمتعال خبر ثالث ورسمت بغير ياء لأنها رأس آية ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها • (سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به) يجوز في سواء أن تكون خبراً مقدماً ومنكم حال من ضميره ومن موصول مبتدأ مؤخر وهو في الأصل مصدر بمعنى مستو وقد تقدم القول فيه في البقرة ويجوز أن تكون مبتدأ ومنكم صفة ومن خبر وجملة أسر القول صلة أي أخفاه في نفسه ومن جهر به عطف على من أسر القول • (ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) ومن عطف على من السابقة وهو مبتدأ ومستخف خبر والجملة الاسمية صلة وبالليل جار ومجرور متعلقان بمستخف وسارب عطف على مستخف وبالنهار متعلقان بسارب وقياس الكلام : ومن هو سارب ، والسر فيه أن الموصول حذف وصلته باقية والمعنى ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع خصوصاً وقد تكرر

الموصول في الآية ثلاثاً ومنه قوله تعالى : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » والأصل ولا مايفعل بكم وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهي موقع وانما صحب في الأول الموصول لا الصلة ومنه قول حسان :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه وينصره سواء •

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) له خبر مقدم والضمير مردود على « من » كأنه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب معقبات ، ومعقبات مبتدأ مؤخر ومن بين يديه صفة لمعقبات أو متعلقان بمعقبات نفسها ومن خلفه عطف على من بين يديه وجملة يحفظونه صفة لمعقبات أيضاً ومن أمر الله متعلقان بيحفظونه وتقدم القول في المراد بالمعقبات في باب اللغة ومعنى يحفظونه من أمر الله أي مما أمر هو به لأنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله قال ابن الأنباري : وفي هذا قول آخر وهو ان من بمعنى الباء أي يحفظونه بأمر الله وقيل ان من بمعنى عن أي يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم كقوله : أطعمهم من جوع أي عن جوع وقيل يحفظونه من ملائكة العذاب وقيل يحفظونه من الجن واختار ابن جرير ان المعقبات المواكب بين أيدي الأمراء على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء •

وعبارة الفراء : « في هذا قولان أحدهما أنه على التقديم والتأخير تقديره : له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه والثاني ان كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به » •

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) إن واسمها وجملة لا يغير خبرها وفاعل يغير عائد على الله وما موصول مفعول يغير وبقوم صلة وحتى حرف غاية وجر ويغيروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وما مفعول به وبأنفسهم صلة . (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له) الواو عاطفة واذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة أراد الله مضاف اليها وبقوم متعلقان بأراد والفاء رابطة ولا نافية للجنس ومرد اسمها وله خبرها . (وما لهم من دونه من وال) الواو عاطفة وما نافية ولهم خبر مقدم ومن دونه حال ومن زائدة ووال مجرور لفظاً مرفوع محلاً لأنه مبتدأ مؤخر .

البلاغة :

١ ــ الطباق في قوله « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد » أي ما تنقص وتزيد .

٢ ــ المبالغة أو الافراط في الصفة على اختلاف في التسمية والأولى لقدامة و الثانية لابن المعتز والناس على تسمية قدامة وعرفها قدامة فقال : هي أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده وهي أقسام عديدة نوردها مختصرة فيما يلي :

آ ــ المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة وقد جاءت على ستة أمثلة : فعلان كرحمن عدل عن راحم للمبالغة ، كما تقدم في البسملة ، ولا يوصف به إلا الله تعالى ولم تنعت العرب به أحداً في جاهلية ولا إسلام إلا مسيلمة الكذاب نعتوه به فقال شاعرهم :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أباً فأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فأما الرحمن فلم يوصف به إلا الله •

وفعال كقوله تعالى : « وإني لغفار لمن تاب » •

وفعول كغفور وشكور وودود •

وفعيل كعليم وحكيم وسميع •

ومفعل كمدعس كمنبر الرمح يدعس به أي يطعن كما في تاج العروس •

ومفعال كمطعام ومقدام •

ب ـ ما جاء بالصيغة العامة موضع الخاصة كقولك أتاني الناس كلهم ولم يكن أتاك إلا واحد منهم أردت تعظيمه ومنه قوله تعالى : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » فوعدهم سبحانه بجزاء غير مقدر لاخراج العبارة مخرجاً عاماً لتردد الأذهان في مقدار الثواب •

جـ ـ اخراج الكلام مخرج الاخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » فجعل مجيء آياته مجيئاً له سبحانه •

د ـ اخراج الممكن من الشرط الى الممتنع ليمتنع وقوع المشروط كقوله تعالى في سورة الأعراف وقد تقدم : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » •

هـ ـ ما جرى مجرى الحقيقة وقد كان مجازاً كقوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » فإن اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها الى الحقيقة فانقلبت من الامتناع الى الامكان •

وهذه مبالغة ظاهرة في جميع هـذه الاقسام على أن هناك مبالغة مدمجة وهي قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها وهي « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » فإن مبالغة هذه الآية جاءت مدمجة في المقابلة .

وسيأتي مزيـد من المبالغـة وأقسامها في مواضع متفرقة من هذا الكتاب .

الفوائـد :

يكاد المفسرون يجمعون على أن هذه الآية تدل على أنه اذا عاش قوم في نعمة فإن الله لا يغيرها عنهم إلا إذا عصوا ربهـم وظلم بعضهم بعضاً ولازم هذا التفسير أن النعمة تدوم وتزداد بالشكر والطاعة وانها تزول بالجحود والطغيـان وكان وما زال في النفس شيء من هـذا التفسير لأمور :

أولها : اننا نرى المحتكرين والمستثمرين كلما نشطوا في الطغيان والسلب والنهب كثرت أموالهم وربت .

وثانيها : ان هذا التفسير يتنافى مع قول الله تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الزخرف « ولولا أن يكـون الناس أمة واحـدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » إذن فالسعة في الرزق لا تدل على رضا الله كما أن الضيق لا يشعر بغضبه لأنـه لا يجزي الشاكرين

بالذهب والفضة ولا يعاقب العاصين بالحرمان منهما بل الأمر بالعكس فقد جاء في القرآن الكريم أن الله يعاقب الجاحدين بكثرة الأموال « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » .

وثالثها : انه متناف مع ما هو مأثور ومتعالم من أن المؤمن مبتلى وممتحن .

ولعل خير تفسير تتحمله الآية هو أن يقال : ان المرء الذي يثور أولاً على نفسه فيصلحها إنما هو المصلح الحقيقي وعلى ما ورث من تقاليد وتظم ربما كانت فاسدة أو على ما أفسده الزمان فيصلحه هو الذي يصح أن يكون معنياً بهذه الآية التي تكمن فيها روح الشجاعة والثورة على فساد العادات والتقاليد وفساد العقائد والمبادىء وعلى الفقر والجهل وعلى الاستعمار والاقطاع ، كما تكمن فيها روح الثورة على الذين يبنون قصوراً من عرق الكادحين ويعدون سيارات من دموع المنكوبين .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

اللغــة :

(السحاب) : الغيم المنسحب في الهواء والسحاب اسم جنس واحده سحابة فلذلك وصف بالجمع وهو الثقال جمع ثقيلة ، ويفهم من كلام صاحب القاموس انه جمع سحابة قال : والسحابة : الغيم والجمع سحاب وسحائب وسحب .

(المحال) : المماحلة وهي شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه ومحل بفلان إذا كاده وسعى به الى السلطان ومنه الحديث « ولا تجعله علينا ماحلاً مصدقاً » وقال الأعشى :

فرع نبع يهش في غصن المجد غزير الندى شديد المحال

ولعل أصله المحل بمعنى القحط وقيل : فعال من المحل بمعنى القوة فالميم أصلية وقيل أصله مفعل من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس وفي القاموس : « والمحال ككتاب الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعاداة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والاهلاك ، ومحل به مثلث الحاء محلاً ومحالاً كاده بسعاية الى السلطان وماحله مماحلة ومحالاً قاواه حتى يتبين أيهما أشد » وفي الأساس : وماحله كايده ، وهو شديد المحال ورجل متماحل فاحش الطول وبلد متماحل : بعيد ، قال يصف فرساً :

من المسبطرات الجياد طمرة

لجوج هواها السبسب المتماحل

وقال آخر يصف بعيراً :

بعيــد من الحادي إذا ما ترقّصت

بنات الصُّوى في السبسب المتماحل

قال الزجاج يقال : ماحلته محالاً : إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد ، وقال ابن قتيبة : أي شديد الكيد وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان وأصله من الكون قال الأزهري : غلط ابن قتيبة ان الميم فيه زائدة بل هي أصلية وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوله ميم مكسور فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراس ٠

الاعراب :

(هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال) هو مبتدأ والذي خبره ويريكم البرق فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعولاه والجملة صلة وخوفاً وطمعاً اختلف في نصبهما فقيل على المصدرية أي لتخافوا خوفاً ولتطمعوا طمعاً وقيل هما حالان من الكاف في يريكم أي حال كونكم خائفين وطامعين ويجوز أن يكونا مفعولا لهما واختاره أبو البقاء ومنعه الزمخشري ونص عبارته : « لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع أو على معنى إخافة وإطماعاً ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف وذا طمع أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين ومعنى الخوف والطمع أن

وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث قال أبو الطيب :

فتى كالسحاب الجون تخشى وترتجى
يرجّى الحيا منها وتخشى الصواعق

على أن منع الزمخشري فيه تعسف ويمكن أن يكونا مفعولاً لهما على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى لأنه إذا أراهم فقد رأوا والأصل : وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً أي ترقبونه وتتراعونه تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع . وينشىء السحاب عطف والسحاب مفعول به والثقال صفة للسحاب . (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) عطف على ما تقدم ويسبح الرعد فعل مضارع وفاعل وبحمده في موضع نصب على الحال وفي هذه الباء خلاف ترى بحثاً عنه في باب الفوائد ، والملائكة عطف على الرعد أي ويسبح الملائكة من هيبته واجلاله فهو متعلق بيسبح ولك أن تنصبه على الحال أي هائبين وخائفين . (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) ويرسل الصواعق عطف على ما تقدم فيصيب عطف أيضاً وبها متعلقان بيصيب ومن مفعول به ليصيب وجملة يشاء صلة . (وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) الواو استئنافية أو حالية وهم مبتدأ وجملة يجادلون خبر وفي الله متعلقان بيجادلون والواو حالية وهو مبتدأ وشديد المحال خبره والجملة حالية . (له دعوة الحق) له خبر مقدم ودعوة الحق مبتدأ مؤخر وهي من اضافة الموصوف الى صفته أي لدعوة الحق المطابقة للواقع . (والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء) والذين مبتدأ وجملة يدعون صلة والضمير في يدعون عائد على الكفار والعائد على الذين محذوف أي يدعونهم ويؤيده قراءة من قرأ تدعون

بالتاء في تدعون وقيل الذين أي الكفار الذين يدعون ومفعول يدعون محذوف أي يدعون الأصنام والعائد على الذين الواو في يدعون والواو في ولا يستجيبون عائد في هذا القول عـلى مفعول يدعون المحذوف وعلى القول الأول على الذين ، ومن دونه حال وجملة لا يستجيبون خبر ولهم متعلقان بيستجيبون وكذلك بشيء • (إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) إلا أداة حصر وكباسط متعلق بمحذوف نعت لمصدر محذوف أي إلا استجابة كاستجابـة باسط كفيه وكفيه مضاف لباسط والى الماء جار ومجرور متعلقان بباسط وليبلـغ اللام للتعليل ويبلغ مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بباسط وفاه مفعول به وعلامـة نصبه الألف لأنه من الأسماء الخمسة وفاعل يبلغ ضمير المـاء والواو حالية وما نافية حجازية وهو اسمها واختلف في هذا الضمير فقيل انه ضمير الماء والهاء في ببالغه للفم وقيل انه ضمير الفم والهاء في ببالغه للماء وقيل انه ضمير لباسط والهاء في ببالغه للماء ، وببالغه الباء حرف جر زائد وبالغه مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ما • (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) الواو حالية أو استئنافية وما نافية ودعـاء الكافرين مبتـدأ وإلا أداة حصر وفي ضلال خبر •

البلاغـة :

١ ـ في قوله تعالى « هو الذي يريكم البـــرق خوفاً وطمعاً » فن رائع من فنون البلاغة وهو « صحة الاقسام » ويمكن تحديده بأنه عبارة عن استيفاء المعنى من جميع اقسامه ووجوهه بحيث لا يغـادر

المتكلم منها شيئاً ، ففي الآية المذكورة استوفي قسمي رؤية البرق إذ لبس فيها إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار كما ألمعنا في الاعراب ولا ثالث لهذين القسمين ولكن مجرد استيفاء الأقسام لا يعتبر بياناً بل هناك أمر أبعد من ذلك وأدق وأبعد منالا وهـذا الأمر هو تقديم ما هو أولى بالذكر وأجدر بالتقديم وفي الآية قدم الخوف على الطمع إذ كانت الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة ولا يحصل المطر إلا بعد تواتر الابراق لأنّ تواتره لا يكاد يخلف ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتنتجع فلا تخطىء الغيث والكلأ وقد رمق أبو الطيب سماء هذه البلاغة العالية فقال :

وقد أرد المياه بغـير هاد سوى عـدي لها برق الغمـام

يقول : لا أحتاج في ورود الماء الى دليل يدلني سوى أن أعد برق الغمام فأتبعه كعادة العرب في عدها بروق الغمام ، قال ابن السكيت : « العرب اذا عدت مائة برقـة لم تشك في أنها ماطرة قد سقت فتتبعها على الثقة بالمطر » وقـال ابن الاعرابي في النوادر : « العرب كانوا إذا لاح البرق عدوا سبعين برقة فإذا كملت وثقوا بأنـه برق ماطر فرحلوا يطلبون موضع الغيث ، وأنشد عمر بن الأعور :

سقى الله جيراناً حمـدت جوارهم

كرامـاً إذا عـدّوا وفوق كرام

يعدون بـرق المزن في كل مهمـه

فما رزقهـم إلا بروق غمـام

ولما كان الأمر المخوف من البرق يجوز وقوعه من أول برقة واحدة أتى ذكر الخوف في الآية مقدماً أولاً لكون الواحد أول العدد ولما كان الأمر المطمع من البروق إنما يقع بعد عدد من الابراق أتى ذكر الطمع تالياً لكونه لا يقع إلا في أثناء العدد وليكون الطمع ناسخاً للخوف كمجيء الرخاء بعد الشدة ، والفرج بعد الكربة ، والمسرة بعد الحزن ، فيكون ذلك أحلى موقعاً في القلوب ويشهد لهذا التفسير قوله : « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » فجاء معنى الآية على ما جاء رحمة من الله سبحانه بخلقه وبشرى لعباده .

المؤاخاة بين المعاني والمؤاخاة بين المباني

وحيث وصلنا الى هذا المدى من ترتيب الاقسام يجدر بنا أن نتحدث عن المؤاخاة بين المعاني والمؤاخاة بين المباني وانها سر البيان ونسمة الروح فيه وقد أخذوا على أبي الطيب قوله على أنه آية في الحسن والروعة :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو مساءة مجرم

فإن المقابلة الصحيحة بن المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم وليس كل من أجرم اليك كان مبغضاً لك .

وروى أبو الفرج في الأغاني انه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت :

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة

وإن تكامل فيها الدلّ والشنب

فعقد نصيب واحدة فقال له الكميت : ماذا تحصي ؟ قال : خطأك فإنك تباعدت في القول ، أين الدل من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لميــــاء في شفتيها "حوّة" لَعَس"

وفي اللثّات وفي أنيابهـــــا شنب

وهذا موضع دقيق ـ كما قلنا ـ يتورط فيه أرباب النظم والنثر كثيراً وهو مظنة الغلط لأنه يحتاج الى شفوف طبع وثقوب نظر وقـد وقع الخطأ لأبي نواس في قوله في وصف الديك وهي أرجوزة سنوردها في باب الفوائد لملاحتهـا وندرتها ولأن الدواوين الموجودة بين أيدينا أوردتها خطأ قال :

له اعتدال وانتصاب قــدّ وجلــده يشبه وشْي البرد

كأنها الهُـــداب في الفرنْد محدودب الظهر كريم الجـد

فإن ذكر الظهر من جملة الخلق والجد من النسب وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويؤاخيه أيضاً وسيرد من أمثلة هذا الفن في كتابنا الشيء الكثير .

٢ ـ وفي قوله تعالى : « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغـه » تشبيه تمثيلي رائع فقد شبه دعوة الكفار للآلهة ليستجيبوا لهم ثم صمم الآلهة وجمودها وعدم استجابتها وهـذا هو المشبه المركب بمن يبسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وهو بعيد عنه ثم يبالغ في الدعوة ويحمله الهوس على ارجاء من الماء أن يستجيب وهو جساد لا يشعر فهـذا هو المشبه به

وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشراً أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته وشربته .

وقال أبو عبيدة « أي كالقابض على الماء ليس على شيء » قال والعرب تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بالقابض على الماء وأنشد سيبويه :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها
من الود مثل القابض الماء باليد

وقال آخر :

وإني وإياكم وشوقاً اليكم كقابض ماء لم تطعه أنامله

وقال آخر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع

الفوائد :

١ ـ خلاف حول الباء :

اختلف النحاة والمعربون في الباء من قوله تعالى « ويسبح الرعد بحمده » فقيل : هي للمصاحبة أو الملابسة أو باء الحال أي يسبحه حامداً له أي ينزهه عما لا يليق به ويثبت له ما يليق به ، وضابط هذه الباء أن يغني عنها وعن مصحوبها الحال كما رأيت أو يحسن في موضعها « مع » وقيل هي للاستعانة أي يسبحه بما حمد به نفسه فيكون الحمد مضافاً الى الفاعل أما في الأولى فهو مضاف الى المفعول

ومن العجيب أن ابن خالويه النحوي أعربها في كتابه اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم عند اعرابه « فسبح بحمد ربك » اعربها زائدة ولا أدري كيف استساغ ذلك ومواضع زيادة الباء معروفةوهي هنا ليست واحدة منها .

سبحانك اللهم وبحمدك :

قال ابن هشام في مغني اللبيب : واختلف في « سبحانك اللهم وبحمدك » فقيل جملة واحدة ، وليس مراد المغني الخلاف في الباء بل في الواو « على أن الواو زائدة وقيل جملتان على أنها عاطفة ومتعلق الباء محذوف أي بحمدك سبحتك وقال الخطابي : المعنى وبمعونتك التي هي نعمة توجب علي حمدك سبحتك لا بحولي وقوتي يريد انه مما أقيم فيه المسبّب مقام السبب . .

٢ ــ قصيدة أبي نواس في وصف الديك :

وعدناك باثبات أرجوزة أبي نواس في وصف الديك وبرا بالوعد نثبتها كما رأينا وخلافاً لما وردت عليه في الدواوين :

أنعت ديكاً من ديوك الهند ... أحسن من طاووس قطر المهدي

أسجع من عادي عرين الأسد ... ترى الدجاج حوله كالجند

يقعين منه خيفةً للسّفْد ... له سقاع كدويّ الرّعد

منقاره كالمعول المُحَدّ ... يقهر ما ناقره بالنقد

عيناه منه في القفا والخد ... ذو هامة وعنق كالورد

وجلدة تشبه وشي البرد ... ظاهرها زَفٌ شديد الوقد

كأنه الهداب في الفرند مضمر الخلق عميم القد

له اعتدال وانصاب قد محدودب الظهر كريم الجد

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ
أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ
أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا
فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ
زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ
جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ
لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

اللغــة :

(الغدو) جمع غُدوة بضم الغين وتجمع أيضاً على غُدى والغداة بفتح الغين وتجمع على غدوات والغديّة وتجمع عـلى غدايا وغديات : البكرة أو ما بين الفجر وطلوع الشمس •

(الآصال) جمع الأصيل وهو الوقت بين العصر والمغرب ويجمع أيضاً على آصال وأصائل وأُصُل وأُصْلان •

(احتمل) : أي حمل فافتعل بمعنى المجرد أو هو بمعنى المطاوع كما يفهم من عبارة الأساس : « وحملت الشيء وحملنيه غيري فاحتملته وتحملته ومن المجاز حملت ادلاله عليّ واحتملته قال :

أدلّت فلم أحمــل وقالت فلم أجب

لعمــر أبيهـــا انني لظلـــوم

(زبداً) : الزبد وضر الغليان والوضر بفتحتين وبالضاد المعجمة وسخ الدسم ونحوه وعبارة الخازن : الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبداً رابياً أي عالياً مرتفعاً فوق المـاء طافياً عليها ، وفي القاموس : الزبد ما يعلو على وجــه الماء ونحوه من الرغوة ومن معانيه الخبث ومنه المثــل : « صَرَّحَ المخض عن الزبد » يعنون بالزبد رغوة اللبن يضـرب للصدق يحصل بعد الخبر المظنون

(جفاء) قـال ابن الأنباري : الجفاء المتفرق يقـال جفأت الريح السحاب أي قطعته ومزقته وقيل الجفاء ما يرمي به السيل يقال جفأت

القدر بزبدها تجفأ من باب قطع وجفأ السيل بزبده وأجفأ وأجفل باللام وفي همزة جفاء وجهان أظهرهما أنها أصل لوجودها في تصاريف هذه المادة والثاني أنها بدل من واو وقال في الأساس : « ذهب الزبد جفاء أي مدفوعاً مرمياً به قد جفأه الوادي الى جنباته ويقال : جفأت القدر بزبدها ، ومرّ جفاء من العسكر الى البيات أي جماعة معتزلة من معظمه وتقول سامه جفاء ونبذه جفاء إذا عزله عن صحبته » .

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ جفالاً قال أبو عبيدة يقال : أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته » قال أبو حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفأر .

الاعراب :

(ولله يسجد من في السموات والارض طوعاً وكرهاً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة ومسوقة لبيان انقياد الخلائق جميعها والكائنات بأسرها للقوة الخالقة المدبرة والتصرف على مشيئته في الحركة والسكون والامتداد والزوال أو الفيء والتقلص ولله متعلقان بيسجد ومن فاعل يسجد وفي السموات والأرض صلة من وطوعاً وكرهاً نصب على الحال أي طائعين وكارهين أو على المصدرية أي انقياد طوع وانقياد كره . (وظلالهم بالغدو والآصال) الواو عاطفة وظلالهم عطف على من وبالغدو والآصال متعلقان بيسجد . (قل : مَن رب السموات والأرض قل الله) قل فعل أمر وفاعله أنت والجملة بعده مقول القول ومن اسم استفهام مبتدأ ورب السموات والأرض خبر وقل فعل أمر والله خبر لمبتدأ محذوف أي هو الله أو مبتدأ والخبر محذوف أي الله رب السموات والأرض . (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون

لأنفسهم نفعاً ولا ضراً) الهمزة للاستفهام الانكاري التهكمي والفاء عاطفة على محذوف كأن في الكلام تقديراً بين الهمزة والفاء تقديره فل أ أقررتم بالجواب المذكور فاتخذتم ، وقد تقرر هذا كثيراً ، واتخذتم فعل وفاعل ومن دونه حال لأنه كان في الأصل صفة لأولياء وأولياء مفعول به وجملة لا يملكون صفة ولأنفسهم حال أو بالنفع والضر على أنهما مصدران ونفعاً مفعول به ولا ضراً عطف عليه . (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) هل حرف استفهام بمعنى النفي أي لا يستويان ويستوي الأعمى فعل مضارع وفاعل وأم حرف عطف وهل تستوي الظلمات والنور عطف على الجملة السابقة ولك أن تجعل أم منقطعة بمعنى بل . (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أم المنقطعة وجعلوا فعل وفاعل ولله حال لأنه كان صفة لشركاء وشركاء مفعول به أو لله مفعول به ثان لجعلوا وجملة خلقوا صفة .والكاف مع مدخولها نعت لمفعول محذوف أي خلقوا خلقاً مثل خلقه والفاء حرف عطف وتشابه الخلق فعل ماض وفاعل وعليهم متعلقان بتشابه . (قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) الله مبتدأ وخالق كل شيء خبر وهو مبتدأ والواحد خبر والقهار خبر ثان . (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الجملة مستأنفة مسوقة لضرب مثل لتقدير ما تقدم وأنزل فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هوأي الله تعالى ومن السماء جار ومجرور متعلقان بأنزل وماء مفعول به والفاء حرف عطف وسالت أودية فعل وفاعل وبقدرها متعلقان بسالت أو بمحذوف صفة لأودية أي بمقدار ما يملؤها وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة . (فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) الفاء عاطفة واحتمل السيل فعل ماض وفاعل وزبداً مفعول احتمل لأنه بمعنى حمل ورابياً صفة

لزبداً أي طافياً على وجهه وعالياً عليه ، ومما الواو عاطفة لتعطف مثلاً آخر على المثل الأول ومما خبر مقدم وجملة يوقدون صلة وعليه متعلقان بيوقدون وفي النار حال وابتغاء حلية مفعول لأجله على الأصح وقيل مصدر بمعنى الحال أي مبتغين حلية وليس ثمة مانع من ذلك وآو حرف عطف ومتاع معطوف على حلية وزبد مبتدأ مؤخر ومثله صفة أي مثل زبد السيل وهو وضره الذي ينفيه كير الحداد . (كذلك يضرب الله الحق والباطل) كذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك المذكور من الأمور الأربعة مثلين للحق ومثلين للباطل فالأولان الماء والجوهر والآخران الزبد والوضر . ويضرب الله الحق فعل مضارع ومفعول به والباطل عطف على الحق . (فأما الزبد فيذهب جفاء) الفاء عاطفة للتفريع وأما حرف شرط وتفصيل والزبد مبتدأ والفاء رابطة وجملة يذهب خبر وجفاء حال . (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) الواو عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل وما موصول مبتدأ وجملة ينفع الناس صلة والفاء رابطة وجملة يمكث في الأرض خبره . (كذلك يضرب الله الأمثال) تقدم إعرابه . (للذين استجابوا لربهم الحسنى) اختلفت آراء المعربين في إعراب هذه الآية ونرى أن هنالك وجهين هما أولى نوردهما فالأول : للذين خبر مقدم وجملة استجابوا صلة ولربهم متعلقان باستجابوا والحسنى مبتدأ مؤخر والثاني : للذين متعلقان بيضرب في الآية السابقة والحسنى صفة لمصدر محذوف أي الاستجابة الحسنى . (والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافي الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به) ويتمشى على هذه الآية الاعرابان المتقدمان فلك أن تجعل الذين مبتدأ فيكون الكلام مستأنفاً وخبره لو ومافي حيزها ، ولك أن تعطفها نسقاً على الذين السابقة وجملة لم يستجيبوا صلة وله متعلقان بيستجيبوا ولو شرطية وأن ومافي حيزها فاعل لفعل محذوف وقد تقدم ، ولهم خبر

ان وما اسمها وفي الأرض صلة وجميعاً حال، ومثله عطف ومعه ظرف متعلق بمحذوف حال أي كائناً معه ، لافتدوا اللام واقعة في جواب لو وافتدوا فعل ماض والواو فاعل وبه متعلقان بافتدوا • (أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) أولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وسوء الحساب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أولئك ومأواهم مبتدأ وجهنم خبر مأواهم وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمهاد فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي مهادهم أو هي •

البلاغـة :

١ ـ استعارة السجود للانقيـاد والخضوع وهما من خصائص العقلاء للكائنات العاقلة وغير العاقلة والطوع الناشىء عن اختيار وهو الصادر عن الانسان والكره الناشىء عن غير اختيار وهو الصادر عن الجماد ومعنى انقياد الظـلال مطاوعتهـا لما يراد منها كطولها وقصرها وامتدادها وتقلصها •

ولأبي حيان كـلام لطيف نثبته فيما يلي دفعاً للأوهـام قال : « وكون الظلال يراد بها الأشخاص كما قال بعضهم ضعيف وأضعف منه قول ابن الأنباري : انه تعالى جعل للظلال عقولاً تسجد بها وتخشع بها كما جعل للجبال أفهاماً حتى خاطبت وخوطبت لأن الجبل لا يمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة وأما الظل فعرض لا يتصور قيام الحياة به » •

٢ ـ التهكموالفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل لمجيئه على سبيل الاستهزاء والسخرية هذا على

ما تعارفناه بيننا والهزل الذي يراد به الجد ظاهره هزل وباطنه جد وفي قوله تعالى « خلقوا كخلقه » في سياق الانكار تهكم بهم لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة لا بطريق المشابهة والمساواة ولا بطريق الانحطاط والقصور فقد كان يكفي في الانكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقاً ولكن جاء قوله تعالى كخلقه تهكماً يزيد الانكار تأكيداً وقد أسلفنا القول في التهكم وأوردنا أبياتاً لابن الرومي وغيره فيه ونرى من المفيد أن نتحدث قليلاً عن نقيضه وهو الهزل المراد به الجد وهو أن يقصد المتكلم مدح شيء أو ذمه فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب وخير مثال عليه قول أبي نصر بن أبي الفتح كشاجم :

صديق لنا من أبدع الناس في البخل
وأفضلهم فيه وليس بذي فضل

دعاني كما يدعو الصديق صديقه
فجئت كما يأتي إلى مثله مثلي

فلما جلسنا للطعام رأيته
يرى أنه من بعض أعضائه كلي

ويغتاظ أحياناً ويشتم عبده
وأعلم أن الشتم والغيظ من أجلي

فأقبلت أستل الغذاء مخافة
وألحاظ عينيه رقيب على فعلي

أمـــدّ يديَ سراً لأسرق لقمـــة
فيلحظني شزراً فأعبث بالبقـــــل
إلى أن جنت كفي لحتفي جنايـــة
وذلك أن الجوع أعـــدمني عقلي
فجرت يدي للحين رجـل دجاجـة
فجرت كما جرت يدي رجلها رجلي
وقدم من بعـــد الطعام حـلاوة
فلم أستطع منهـــا أمر ولا أحلي
وقمـــت لو اني كنت بيّتّ نيـة
ربحت ثواب الصوم من عدم الأكل

٣ ــ المثل : تقدم القول في المثل السائر ونقول هنا إن كتاب الله الكريم طافح بالأمثال وفي قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقـدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع فيمكث في الأرض » مثلان ضربهما الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثّل الحق وأهله بالمـاء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فتخصوصب وتخضر وتنبت وتزدهر وينتفعون بأنواع المنافـع وبالجواهر التي يصوغون منهـا الحلي والآلات التي تضفي عليهم القوة والهيبة والجمال والبأس الشديد وإن ذلك كله ماكث

في الأرض لا تخلق له جدة ولا تذبل منه نضارة وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنافع بزبد السيل الطافي الذي تقحمه العين وينبو عنه البصر لعدم جدواه وبالوضر الذي يطفو فوق الجوهر إذا أذيب وقد انطوت تحت هذا المثل الرائع أنواع من البلاغة نوردها باختصار :

آ ـ تنكير الأودية لأن المطر لا يأتي إلا عـلى طريق التناوب بين البقـــاع .

ب ـ الاحتراس بقوله « بقدرها » أي بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للسطور عليهم غير ضار وإلا فلو طما واستحال سيلاً لاجتاح الأخضر واليابس ولأهلك الحرث والنسل .

ج ـ تعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو قوله تعالى : « فسالت » وهو لو ذكر لكان نكرة فلما أعيد أعيد معرفة نحو رأيت رجلاً فأكرمت الرجل وهكذا تطرد القاعدة في النكرة إذا أعيدت .

د ـ مراعاة النظير في ألفاظ الماء والسيل والزبد والربو وفي ألفاظ النار والجوهر والفلزات المعدنية والايقاد والحلية والمتاع .

هـ ـ اللف والنشر الموشى في قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء » الى آخر الآية .

واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمـله السيل والزبد الـذي يعلو الأجسام المنطرقة أن تراب الأرض لما خالط المـاء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى

يذوب من الأجسام المنطرقة فان أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها •

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

الاعراب :

(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أنمن تقدم القول في هذا التركيب كثيراً ونعيده للفائدة فالهمزة للاستفهام الانكاري والفاء مؤخرة من تقديم أو عاطفة على محذوف هو

مدخول الهمزة والتقدير : أيستوي المؤمن والكافر أفمن يعلم . ومن مبتدأ وجملة يعلم صلة ولك في أنما وجهان أن تجعلها كافة ومكفوفة فأنزل فعل ماض مبني للمجهول واليك حال ومن ربك متعلقان بأنزل والحق نائب فاعل ، ولك أن تفصل ما فتعرب أن حرفاً مشبهاً للفعل وما اسمها والحق خبرها وأن وما في حيزها على الوجهين سدت مسد مفعولي يعلم والكاف اسم بمعنى مثل خبر من وهو مبتدأ وأعمى خبر والجملة الاسمية صلة من . (إنما يتذكر أولو الألباب) إنما كافة ومكفوفة ويتذكر فعل مضارع وأولو فاعله وهو مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والألباب مضاف اليه . (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) الذين مبتدأ وخبره سيأتي فيما بعد وهو قوله أولئك لهم عقبى الدار ولك أن تعربه بدلاً من أولي الألباب تفادياً لطول الفصل بين الابتداء والخبر وجملة يوفون صلة وبعهد الله متعلقان بيوفون ، ولا ينقضون الميثاق عطف على الجملة السابقة وستأتي سبع صفات أخرى لهم فتكون صفاتهم ثمانياً .(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) والذين عطف على الذين وجملة يصلون صلة وما مفعول به وجملة أمر الله صلة ومفعول أمر محذوف والتقدير ما أمرهم وبه متعلقان بأمر وأن وما فيحيزها بدل من الضمير المجرور وهو الهاء أي بوصله . (ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) ويخشون عطف على يصلون ويخشون فعل مضارع وفاعل وربهم مفعول به ويخافون عطف على يخشون وسوء الحساب مفعول به . (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) والذين عطف على الذين السابقة وصبروا صلة وابتغاء وجه ربهم مفعول لأجله ، وقال بعضهم : « والذين صبروا » قيل هو كلام مستأنف وقيل معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ المضي للتنبيه على أنه ينبغي تحققه . (وأقاموا

الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) وأقاموا الصلاة عطف وهي فعل وفاعل ومفعول به وأنفقوا عطف على أقاموا ومما متعلقان بأنفقوا وجملة رزقناهم صلة وهي فعل وفاعل ومفعول به وسراً وعلانية منصوبان بنزع الخافض أو هما مصدران في موضع الحال واختار هذا أبو البقاء أي في السر والعلانية ويجوز نصبهما على الحال أي مسرين ومعلنين • (ويدرءون بالحسنة السيئة) عطف على ما تقدم وبها تكتمل أوصافهم الثمانية وبالحسنة متعلقان بيدرءون والسيئة مفعول به ليدرءون • (أولئك لهم عقبى الدار) أولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وعقبى الدار مبتدأ مؤخر وجملة لهم عقبى الدار خبر أولئك والجملة كلها خبر الذين الأولى (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) جنات عدن بدل من عقبى الدار أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي جنات أو مبتدأ وجملة يدخلونها خبر وعلى الاولين تكون الجملة حالية •

ومن عطف على الواو في يدخلونها ولا حاجة لتقدير ضمير كما فعل بعض المعربين لوجود الفصل بالضمير المنصوب ولك أن تعربها مفعولاً معه والواو واو المعية وجملة صلح صلة ومن آبائهم حال وما بعده عطف عليه • (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) الواو حالية والملائكة مبتدأ وجملة يدخلون خبر وعليهم متعلقان بيدخلون ومن كل باب متعلقان بيدخلون أيضاً • (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) سلام مبتدأ وعليكم خبر وساغ الابتداء لما فيه من معنى الدعاء والجملة مقول قول محذوف في موضع نصب على الحال أي قائلين وبما صبرتم الباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أي هذا بسبب صبركم فهما خبر لمبتدأ محذوف أو متعلق بسلام أي نسلم

عليكم ونكرمكم بصبركم وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والفاء الفصيحة ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح وعقبى الدار فاعل نعم والمخصوص بالمدح محذوف أي هي .

البلاغة :

في قوله تعالى « صبروا ابتغاء وجه ربهم » فن الاحتراس وقد تقدم فقد انتفى بقوله ابتغاء وجه ربهم أن يكون صبرهم ناشئاً عن حب الجاه والشهرة أو ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل لئلا يشمت به الأعداء كقول أبي ذؤيب :

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتزعزع

ولا اعتقاداً منهم بأن الأمر مقدور ولا مفر منه ولا طائل من الهلع ولا مرد للفائت ولا دافع لقضاء الله كقوله :

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاي زندا

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ

وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

اللغـــة :

(طوبى) : مصدر من الطيب كبشرى ورجعى وزلفى فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى وأصله يائي فهي طيبى قلبت الياء واواً لوقوعها ساكنة إثر ضمة كما قلبت في موقن وموسر من اليقين واليسر ومعنى طوبى لك أصبت خير طيباً ومحلها النصب أو الرفـع كقولك طيباً لك وطيب لك وسلاماً لك وسلام لك وفي القاموس : الطوبى مؤنث الأطيب والغبطة والسعادة والخير والخيرة وجمع طيبة وهذا من نوادر الجموع .

الاعراب :

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) الذين مبتدأ وجملة ينقضون صلة والواو فاعل وعهد الله مفعول به ومن بعد ميثاقه حال . (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصـــل) تقـــدم إعراب نظيرتهـــا .

(ويفسدون في الأرض) عطف على الجمل السابقة . (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) أولئك مبتدأ وخبره لهم اللعنة وقـــد تقدم اعراب نظيرتها وجملة أولئك لهم اللعنة خبر الذين ولهم سوء الدار عطف على لهم اللعنة . (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) الله مبتدأ وجملة

يبسط الرزق خبر ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على يشاء • (وفرحوا بالحيـاة الدنيا) الواو استئنافية وجملة فرحوا مستأنفة مسوقة لبيان قبح أفعالهم مع ما أفاضه عليهم من رزق ونعم سوابغ وبالحياة جار ومجرور متعلقان بفرحوا والدنيا صفة للحياة • (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) الواو حالية وما نافية والحياة مبتدأ والدنيا صفة وفي الآخرة حال عـلى حذف مضاف أي في جنب الآخرة و « في » هذه للمقايسة وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق والتقدير وما الحياة الدنيا كائنة في جنب الآخرة ولا يجوز أن تكون « في » للظرفية لأن الحياة الدنيا لا تكون في الآخرة وإلا أداة حصر ومتاع خبر • (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) الواو عاطفة ليتساوق الارتباط بين قولهم وما كانوا عليه من ضلال • ويقول الـذين فعل مضارع وفاعـل وجملة كفروا صلة ولولا حرف تحضيض بمثابة هلا وأنزل فعـل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل والضمير يعود على النبي محمد عليه السلام وآية نائب فاعل ومن ربه صفة • (قـل إن الله يضل من يشاء ويهـدي إليه من أناب) إن واسمها وجملة يضل خبرها ومن مفعول به وجملة يشاء صلة ويهدي عطف على يضل واليه متعلقان بيهدي ومن مفعول به وجملة أناب صلة •

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) الذين بدل وجملة آمنوا صلة،أو الذين مبتدأ خبره الذين آمنوا والأول أولى ، وتطمئن عدل عن الماضي إلى المضارع لإفادة التجدد وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة وقلوبهم فاعـل تطمئن وبذكر الله متعلقـان بتطمئن والقلوب فاعل • (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) الذين مبتـدأ أو خبر الذين الأولى وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف عـلى الصلة وطوبى مبتدأ ولهـم خبر وساغ

الابتداء بها لما فيها من معنى الدعاء ، وقيل طوبى خبر لمبتدأ محذوف واللام في لهم للبيان مثل سقياً لك ورعياً لك أو مفعول لفعل محذوف أي أصبت خيراً طيباً وقرىء وحسن مآب بالنصب والرفع ، ولك أن تعربها مفعولاً مطلقاً كما قدمنا على قراءة من نصب حسن لظهور حركة الاعراب عليها والأول أولى لأن الجمهور قرأ بالرفع ولأبي البقاء وهم فيها إذ أجاز اعرابها حالاً مقدرة ولا أدري ما هو مبرره وحسن عطف على طوبى ومآب مضاف اليه .

البلاغـة :

في قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم » فن رفيع من فنون البلاغة وقد سبق ذكره ونعيد الآن ما يتعلق بهذه الآية فقد عدل عن عطف الماضي على الماضي فلم يقل واطمأنت قلوبهم لسر من الأسرار يدق إلا على العارفين بأسرار هـذه اللغة الشريفـة ذلك أن من خصائص الفعل المضارع أنه قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حـال أو استقبال وهما الزمانان اللذان يحتملهما المضارع فلا يدل إلا على مجرد الاستمرار ومنه هذه الآية أي أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بصورة مطردة مهما تتالت المحن ، وتعاقبت الأرزاء ، وحدثت المفاجأة فكأنما أعدوا لكـل محنة صبراً ولكـل رزء اطمئناناً جديداً فتدبر هـذه الملاحظـة فإنها عمود الجمال وسره .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ج قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

اللغـــة :

(ييئس) قال الزمخشري : ومعنى أفلم ييئس : أفلم يعلم قيل : هي لغــة قوم من النخع وقيــل : إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمــل الرجاء في معنى الخوف والنسيان في معنى الترك قال سحيم بن وثيل الرياحي :

أقول لهــــم بالشعب إذ ييسرونني
ألم تيئسوا أني ابن فارس زهــدم

وفي المختار : « اليأس : القنوط وقــد يئس من الشيء من باب فهم وفيه لغــة أخرى يئس ييئس بالكسر فيهما وهو شاذ ويئس أيضاً بمعنى علم في لغة النخع ومنه قوله تعالى : « أفلم ييئس الذين آمنوا »» .

(قارعة) : داهية تقرعهم بصنوف البلاء وفي المختار قرع الباب من باب قطع والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية .

الاعراب :

(كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم) الكاف في محل نصب كنظائرها أي مثل ذلك الارسال أرسلناك إرسالاً له شأن وقد تقدمت نظائرها كثيراً وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به وفي أمة متعلقان بأرسلناك وجملة قد خلت صفة لأمم ومن قبلها حال لأنه كان صفة لأمم وأمم فاعل • (لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك) لتتلو اللام للتعليل وتتلو مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بتتلو والفاعل أنت وعليهم متعلقان بتتلو والذي مفعول به وجملة أوحينا إليك صلة • (وهم يكفرون بالرحمن) الواو للحال أي وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن والجار والمجرور متعلقان بيكفرون ولا مانع من جعلها استئنافية كما قال بعضهم • (قل هو ربي لا إله إلا هو) هو ربي مبتدأ وخبر والجملة الاسمية مقول القول ولا إله إلا هو تقدم القول فيها مفصلاً في البقرة فجدد به عهداً • (عليه توكلت وإليه متاب) عليه متعلقان بتوكلت وإليه خبر مقدم ومتاب مبتدأ مؤخر • (ولو أن قرآناً سيّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للرد على من طلبوا من رسول الله أن يسيّر الجبال بقرآنه عن مكة حتى تتسع لهم ويبعث لهم آباءهم ليشهدوا بنبوته • ولو شرطية وان حرف مشبه بالفعل وقرآناً اسمها وجملة سيرت خبر ان وبه متعلقان بسيرت والجبال نائب فاعل وأو حرف عطف وقطعت به الأرض معطوفة وكذلك أو كلم به الموتى وجواب لو محذوف كما تقول لمن تهدده لو أني قمت اليك وتترك الجواب والمعنى ولو أن قرآناً سيرت به الجبال عن مقارها أو

قطعت به الأرض حتى تتصدع وتتزايل وتتهافت أو كلم به الموتى فتسمع وتجيب لما آمنوا وقدره أبو حيان « لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الانذار والتخويف » وسيأتي مزيد بحث عن هذا الحذف في باب البلاغة . (بل لله الأمر جميعاً) بل حرف اضراب ولله خبر مقدم والأمر مبتدأ مؤخر وجميعاً حال وهو عطف للاضراب عما تضمنته لو من معنى النفي أي بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه متعنتين . (أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً) الهمزة للاستفهام والتقرير ولم حرف نفي وقلب وجزم وييئس مضارع مجزوم بلم والذين فاعل وجملة آمنوا صلة وأن مخففة من الثقيلة لتقدم معنى العلم عليها واسمها ضمير الشأن ولو حرف شرط ويشاء فعل مضارع والله فاعل واللام رابطة وجملة هدى الناس جواب لو لا محل لها وجميعاً حال وجملة الشرط وجوابه خبر ان . (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) الواو عاطفة ولا يزال فعل مضارع ناقص والذين اسمها وجملة كفروا صلة وجملة تصيبهم خبر لاتزال وبما صنعوا متعلقان بتصيبهم أي بسبب صنعهم فالباء سببية وما مصدرية وقارعة فاعل تصيبهم . (أو تحل قريباً من دارهم) أوحرف عطف وتحل عطف على تصيبهم والفاعل هي أي القارعة وقريباً ظرف مكان أي مكاناً قريباً من دارهم ومن دارهم متعلقان بقريباً فيتطاير عليهم شرارها وتطوح بهم ويلاتها وقيل إن الفاعل لتحل يعود الى المخاطب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم أي تحل أنت بجيشك قريباً من دارهم كما حل بالحديبية وقد أتى فتح مكة والأول أظهر وأولى . (حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد) حتى حرف غاية وجر ويأتي مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ووعد الله فاعل والمراد بوعده النصر المحتوم وان واسمها وجملة لا يخلف خبرها والميعاد مفعول به .

البلاغـة :

في قوله تعالى : ولو أن قرآناً سيرت به الجبال الى آخر الآية إيجاز عجيب فقد حذف الجواب كما تقدم ، واختلف المعربون والمفسرون في تقديره وقد قدرناه في الاعراب : لما آمنوا وقد اختار الزمخشري هذا التقدير ولكنه جعله مرجوحاً وقدر الأرجح بقوله « لكان هذا القرآن» لكونه غاية في التذكير ونهاية في الانذار وهو تقدير لا بأس به وإن كان الأول أقرب الى سياق الحديث وأوكد في تقرير المعنى وحذف جواب « لو » شائع في كلامهم ومن أمثلته في الشعر قول أبي تمام في قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم عند فتحه عمورية :

لو يعلـــم الكفر كم من أعصر كمنت
لـــه المنيـــة بين السّمر والقضب

فإن جواب لو محذوف تقديره لأخذ أهبته ولأعد للأمر عدته أو لما أقدم على ما أقدم عليه من اجتراء كما تدل عليه قصة المرأة الهاشمية التي سباها أحد العلوج فصرخت وامعتصماه .

وعبارة ابن هشام : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال » الآية أي لما آمنوا به بدليل وهم يكفرون بالرحمن والنحويون يقدرون : لكان هذا القرآن وما قدرته أظهر » .

أي للدليل المذكور وفيه أن ما قدروه أيضاً دل عليه قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » فلم يتبين كون تقديره أظهر من تقديرهم واعلم أن كلاً من الوجهين

ودليل كل واحد ذكره الزمخشري فلم يقدر المصنف شيئاً انفرد به عن غيره خلافاً لما يشعر به قوله : وما قدرته أظهر . هذا وقد أطلق الباقلاني علىٰ هذه الآية فن الاشارة وعرفه « بأنه اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة وقال بعضهم في وصف البلاغة « لمحة دالة » وهو بعينه تعريف الايجـــاز .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

اللغـــة :

(فأمليت) : الاملاء أن يترك مدة طويلة من الزمن في دعة وأمن وفي القاموس وشرحه : « أملي املاء الله فلاناً أطال عمره : أطاله ومتعه به وأمـلى الله الظالم وله أمهله » وقال : والامــلاء مصدر والامهال والتأخير وما يملى من الأقوال والمليّ الطويل من الزمان يقال : انتظرته ملياً أي زمناً طويلاً ومر مليّ من الليل وهو ما بين أوله إلى ثلثه وقيل هو قطعة منه لم تحد .

(أشق) أشد منه اسم تفضيل من شق يشق من باب نصر مشقة وشقّ الأمر : اشتد وصعب •

الاعراب :

(ولقد استهزىء برسل من قبلك) الواو عاطفة ليتساوق الكلام وللتمهيد الى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق واستهزىء فعل ماض مبني للمجهول وبرسل سد مسد نائب الفاعل ومن قبلك صفة لرسل • (فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) الفاء للعطف وأمليت فعل وفاعل وللذين متعلقان بأمليت وجملة كفروا صلة وثم حرف عطف وأخذتهم فعل وفاعل ومفعول به ، فكيف : الفاء عاطفة وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر لكان مقدم وكان فعل ماض ناقص وعقابي اسمها وحذفت الياء لمراعاة الفواصل • (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) الهمزة للاستفهام الانكاري وجوابه محذوف تقديره لا كما سيأتي والفاء عاطفة على محذوف وقد تقدم تقديره ومن اسم موصول مبتدأ وهو مبتدأ ثان وقائم خبر المبتدأ الثاني والجملة الاسمية صلة الموصول وعلى كل متعلقان بقائم والباء حرف جر بمعنى مع وما موصول مجرور بالباء أو مصدرية وهي مع مدخولها مجرورة بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال وخبر من محذوف تقديره كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع وقد دل عليه قوله فيما بعد : « وجعلوا لله شركاء) وجواب الاستفهام «لا» كما قدرناه • (وجعلوا لله شركاء) الواو للاستئناف والجملة مستأنفة مسوقة للدلالة على خبر من المحذوف كما تقدم وهذا أحسن الأقوال فيها وجعلها أبو البقاء عاطفة وجعلها غيره حالية ، وجعلوا فعل وفاعل ولله متعلقان بمحذوف مفعول ثان أو بمحذوف حال وشركاء مفعول جعلوا الأول إن كانت جعل بمعنى صيّر •

(قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض) سموهم فعل أمر للتعجيز وهو فعل وفاعل ومفعول به وأم هي المنقطعة وتنبئونه فعل مضارع حذفت منه همزة الاستفهام والتقدير أتنبئونه وهو فعل وفاعل ومفعول به وبما متعلقان بتنبئونه وجملة لا يعلم صلة ومفعول يعلم محذوف أي يعلمه وفي الأرض حال والمراد نفي أن يكون له شركاء كما سيأتي في باب البلاغة وإلا لتناولهم علمه . (أم بظاهر من القول) أم المنقطعة أيضاً وهي بمعنى بل وبظاهر متعلقان بتنبئونه أي من غير حقيقة واعتبار معنى ومن القول صفة لظاهر . (بل زين للذين كفروا مكرهم) بل حرف اضراب وعطف وزين فعل ماضي مبني للمجهول وللذين متعلقان بزين وكفروا صلة ومكرهم نائب فاعل . (وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد) الواو عاطفة وصدوا فعل وفاعل وعن السبيل متعلقان بصدوا ومن الواو استئنافية ومن شرطية في محل نصب مفعول به مقدم ليضلل ويضلل فعل الشرط والله فاعل ، فما : الفاء رابطة لجواب الشرط وما نافية حجازية وله خبرها المقدم ومن حرف جر زائد وهاد اسم ما محلاً مجرور بما لفظاً . (لهم عذاب في الحياة الدنيا) لهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وفي الحياة صفة لعذاب والدنيا صفة للحياة . (ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق) الواو عاطفة أو حالية واللام للابتداء والآخرة مضاف اليه وأشق خبر عذاب وما لهم من الله من واق تقدم اعرابها .

البلاغة :

انطوت الآية الكريمة وهي قوله تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ... » الى آخر الآية على فنون عديدة من البلاغة لأنها وردت في معرض الاحتجاج عليهم في اشراكهم بالله ندرجها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام الانكاري في قوله تعالى أفمن وحذف خبره تصريحاً في التوبيخ والزراية عليهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما وهذا ما يسميه علماء البيان : الاضمار على شريطة التفسير وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره فيكون الآخر دليلاً على الأول وهو على ثلاثة أضرب :

آ ـ أن يأتي عن طريق الاستفهام فتذكر الجملة الأولى دون الثانية كالآية التي نحن بصددها وكقوله تعالى أيضاً : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين » تقدير الآية أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه ويدل على المحذوف قوله « فويل للقاسية قلوبهم » .

ب ـ أن يرد على حد النفي والاثبات كقوله « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » تقديره لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل .

جـ ـ أن يرد على غير هذين الوجهين فلا يكون استفهاماً ولا نفياً واثباتاً كقول أبي تمام :

يتجنب الآثام ثم يخافها   فكأنما حسناته آثام

ففي صدر البيت إضمار مفسر في عجزه وتقديره انه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسناته آثام والبيت بعد مأخوذ بطرف خفي من قوله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » .

٢ ـ وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن

هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه وذلك في قولــه « وجعلوا لله شركاء » •

٣ ــ التعجيز في قوله « قل سموهم» أي عيّنوا أسماءهم فقولوا فلان وفلان فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني كما تقول : إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمّه لأن المراد بالاسم العلم •

٤ ــ نفي الشيء بايجابه أو عكس الظاهر وقد تقدم بحث هــذا الفن وهو من متطرفات علم البيان وهو في قوله تعــالى « أم تنبئونه بما لا يعلم » وحقيقة هذا النفي أنهــم ليسوا بشركاء وان الله لا يعلمهــم كذلك لأنهم ــ في الواقع ــ ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة ولكن مجيء النفي على هذه السنن المتلو بديع لا تكاد تكتنه بلاغته وعبارته ومن طريفه قول علي بن أبي طالب في وصف مجلس رسول الله صلى الله عليــه وسلم « لا تثنى فلتاته » أي لا تذاع سقطاته فظاهر هــذا اللفظ انه كان ثم فلتات غير أنهــا لا تــذاع وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتثنى •

٥ ــ الاستدارج بقوله «أم بظاهر من القول» ليحثهم على التفكير دون القول المجرد من الفكر كقولــه في مكان آخــر : « ذلك قولهم بأفواههم» «ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها » وهذا الاحتجاج من أعجب الأساليب وأقواها •

٦ ــ التدرج في كل من الأضرابات بأم المنقطعة وبـ « بل » على أنطف وجه •

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَـٰفِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)

الاعراب :

(مثلُ الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا) مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف على مذهب سيبويه أي فيما قصصناه عليكم مثل الجنة أي صفتها التي هي مثل في الغرابة وقد تقدمت مقتطفات من كلام سيبويه في مثل هذا التركيب وقال الزجاج معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الانهار على حذف الموصوف تمثيلاً لما غاب عنا بما نشاهد . والتي صفة للجنة ووعد المتقون فعل ماض مبني للمجهول ونائب فاعل وجملة تجري من تحتها الأنهار تفسير للمحذوف على رأي سيبويه فهي نصب على الحال وكذلك جملة أكلها دائم ، وأكلها مبتدأ ودائم خبروظلهامبتدأحذف خبره دل عليه ماقبله أي دائم وتلك مبتدأ وعقبى خبروالذين مضاف اليه وجملة اتقوا صلة . (وعقبى الكافرين النار) عقبى مبتدأ والنارخبر أو بالعكس

لمناسبة الاول ولعله أولى. (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك) والذين مبتدأ وجملة آتيناهم صلة والكتاب مفعول آتيناهم الثاني وجملة يفرحون خبر الذين وبما متعلقان بيفرحون وجملة أنزل اليك صلة وسر الفرح موافقته لما ورد عندهم .

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) الواو عاطفة ومن الأحزاب خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة ينكر صلة وبعضه مفعول به وسيرد في باب الفوائد كتاب الصلح يوم الحديبية . (قل إنما أمرت أن أعبد الله) إنما كافة ومكفوفة وأمرت فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي بأن أعبد الله والجار والمجرور متعلقان بأمرت . (ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب) ولا أشرك عطف على أن أعبد وبه متعلقان بأشرك واليه متعلقان بأدعو وإليه الثانية خبر مقدم ومآب مبتدأ مؤخر وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل أي واليه مآبي أي مرجعي . (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف أي ومثل ذلك الإنزال أنزلناه ، وأنزلناه فعل وفاعل ومفعول به وحكماً عربياً حالان أي حاكماً بين الناس عربياً أي بلغة العرب ولما كان القرآن سبباً للحكم جعل نفس الحكم وقد تقدمت له نظائر . (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم) اللام موطئة لقسم وان شرطية واتبعت فعل وفاعل وهو في محل جزم فعل الشرط وأهواءهم مفعول به وبعد ظرف متعلق باتبعت وما موصول مضاف اليه وجملة جاءك صلة ومن العلم حال. (مالك من الله من ولي ولا واق) ما نافية حجازية أو تميمية ولك خبر مقدم ومن الله حال لأنه كان في الأصل صفة ومن زائدة وولي اسم ما أو مبتدأ ولا واق عطف عليه وجملة مالك لامحل لها لأنها جواب القسم ولذلك لم تقترن بالفاء

وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم وفقاً للقاعدة في اجتماع الشرط والقسم •

الفوائـد :

لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله تعالى « وهم يكفرون بالرحمن قل : هو ربي » وانما قال : « ومن الأحزاب من ينكر بعضه » لأنهم كانوا لاينكرون الله وينكرون الرحمن وقيل لأنهم كانوا لاينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم وكانوا ينكرون نعت رسول الله وغير ذلك •

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى

الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

اللغـــة :

(أم الكتاب) : أصله الـذي يرتد إليه فكل كائن مكتوب فيه والأم أصل الشيء والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أُمّاً له ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة .

(معقب) : المعقب في الأصل هو الذي يتعقب الشيء بالابطال ومنه قيل الحق معقب لأنه يتعقب غريمه بالطلب والمعقب هو الذي يكر على الشيء فيبطله .

الاعراب :

(ولقــد أرسلنا رسلاً من قبلك) الواو للاستئناف والجمـلة مستأنفة مسوقة لابطال الشبهات التي كانوا يوردونها لابطال النبوة وقد أنهاها المفسرون إلى ست شبهات ويمكن الرجوع اليها في المطولات واللام مواطئة للقسم وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل ورسلاً مفعول به ومن قبلك متعلقان بأرسلنا . (وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) وجعلنا فعل وفاعل ولهم في موضع المفعول الثاني وأزواجاً هو المفعول الأول وذرية عطف على أزواجاً وهذا إبطال للشبهة الأولى من شبهاتهم وهي قولهم : لو كان رسولاً من عند الله لما اشتغل بالنسوة ولما انهمك في تعدد الزوجات ولانصرف الى النسك والزهادة فأجاب بأن الرسل الذين سبقوك كانت لهم زوجات كثيرة فلم يقــدح ذلك في نبوتهم .

(وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) الواو عاطفة وكان فعل ماض ناقص ولرسول خبر كان المقدم وأن ومافي حيزها اسمها المؤخر وبآية جار ومجرور متعلقان بيأتي وإلا أداة حصر وبإذن الله استثناء من أعم الأحوال فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال • (لكل أجل كتاب) لكل خبر مقدم وأجل مضاف اليه وكتاب مبتدأ مؤخر • (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) يمحو الله فعل مضارع وفاعل وما مفعول به وجملة يشاء صلة ويثبت عطف على يمحو وعنده الظرف خبر مقدم وأم مبتدأ مؤخر والكتاب مضاف وهذا رد على شبهة ثانية كانوا يوردونها تعطيلا وإرجافاً وهي أن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر كاستقبال بيت المقدس ثم يأمرهم في الغد بخلافه كاستقبال الكعبة فرد عليهم مفنداً شبهتهم بأنه سبحانه إنما شرع الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم ورأب صدعهم واختيار الأنفع لهم ولكنهم معطلة لا يأبهون لصلاح أمورهم ومقتضيات أحوالهم • (وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) الواو عاطفة وإن الشرطية أدغمت بما الزائدة ونرينك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم فعل الشرط والفاعل مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به وبعض مفعول به ثان والذي مضاف اليه وجملة نعدهم صلة الذي وأو حرف عطف ونتوفينك عطف على نرينك ويقدر المعربون جواب الشرط محذوفاً أي فذلك شافيك ودليل صدقك ويعربون الفاء في قوله فإنما للتعليل لهذا المحذوف ولا داعي لهذا التكلف بل الأسهل أن يكون قوله فانما هو الجواب وتقدير الكلام ومهما يكن من أمر وكيفما دارت الأحوال وإن أريناك مصارعهم وأنزلنا بهم ما أوعدناهم به من عذاب أو توفيناك قبل أن ترى شيئاً من ذلك فما يترتب عليك وليس قصاراك إلا تبليغ الرسالة فحسب • وإنما كافة ومكفوفة وعليك خبر مقدم والبلاغ مبتدأ مؤخر وعلينا خبر مقدم

والحساب مبتدأ مؤخر . (أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على محذوف ـ كما تقدم ـ تقديره أأنكروا نزول ما أوعدناهم وشكوا في ذلك وامتروا فيه ألم ينظروا في ذلك ؟ ألم يروا ؟ ألم تكن لهم في تلك المشاهد الكافية والدلائل الوافية عبرة لهم ؟ ولم حرف نفي وقلب وجزم وأن واسمها سدت مسد مفعولي يروا وجملة نأتي خبر أن وفاعل نأتي مستتر تقديره نحن والأرض مفعول به وجملة ننقصها من أطرافها حالية من فاعل نأتي أو من مفعوله أي نفتحها أرضاً بعد أرض بما ينقص من أطراف المشركين ويزيد في أطراف المؤمنين . (والله يحكم) لفظ الجلالة مبتدأ وجملة يحكم خبر . (لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) لا نافية للجنس ومعقب اسمها المبني على الفتح ولحكمه خبر لا وهو الواو عاطفة وهو مبتدأ وسريع الحساب خبر هو وجملة لا معقب لحكمه حال أيضاً من فاعل نأتي على الالتفات كأنه قيل والله يحكم نافذاً حكمه وستأتي الفائدة من الالتفات في باب البلاغة . (وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً) الواو استئنافية وقد حرف تحقيق وجملة مكر الذين من قبلهم استئنافية مسوقة لتسليته صلى الله عليه وسلم وقد مر بحث اسناد المكر الى الله كثيراً فعرج عليه ، فلله المكر الفاء عاطفة على محذوف بمثابة التعليل أي فلا تأبه لمكرهم ولا تخش ضيراً منه فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من التعليل ، والله خبر مقدم والمكر مبتدأ مؤخر وجميعاً حال وشتان بين مكرهم ومكره . (يعلم ما تكسب كل نفس) الجملة تفسير لقوله فلله المكر جميعاً ويعلم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو وما مفعول به وجملة تكسب صلة وكل نفس فاعل . (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) السين للاستقبال ويعلم الكفار وفي قراءة الكافر فعل وفاعل ولمن اللام حرف جر ومن اسم استفهام في محل

جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وعقبى الدار مبتدأ مؤخر . (ويقول الذين كفروا لست مرسلاً) الجملة مستأنفة مسوقة لاجمال الشبهات الست التي أوردوها والتي تنتهي في اعتقادهم الى هذه النتيجة وهي إبطال رسالته صلى الله عليه وسلم وجملة لست مرسلاً مقول قولهم وهو مجمل شبهاتهم وليس واسمها وخبرها . (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) كفى فعل ماض تقدم بحثه مستوفى وبالله الباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة مجرور لفظاً مرفوع محلاً وشهيداً تمييز وبيني وبينكم ظرفان متعلقان بشهيداً ومن عطف على الله وعنده الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وعلم الكتاب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة من .

البلاغة :

١ ـ في قوله تعالى « أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب في حكمه » التفات بليغ ، وقد سبق ذكر الالتفات مشفوعاً بالأمثلة والشواهد ونزيده هنا بسطاً بصدد مايتعلق بالآية فنقول : الرجوع عن خطاب النفس الى الغيبة في الآية وبناء الحكم على الاسم الجليل ينطوي على أعظم الأسرار وأبهرها فإنه لما أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة المشوبة بالتحذير كان لا بد أن يتوجه اليهم بالخطاب ليريهم مكان القوة والعظمة لديه ، عاد الى تصوير الفخامة والمهابة ، وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة التي هي السبب في إتيان الأرض وانتقاص أطرافها وإدالة الأمر من قوم لقوم ، ونقل السيطرة من الظالمين بالأمس الى المظلومين ومن الغالبين بالأمس الى المغلوبين وهذه الفخمية لا تتأتى إلا بإيراد الكلام في معرض الغيبة فقال ملتفتاً والله يحكم في خلقه بما يشاء لا راد لحكمه ثم أردف ذلك بقوله لامعقب

لحكمه ولا مبطل لمشيئته وثلث بقوله وهو سريع الحساب فكل شيء محسوب لديه وعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا وستأتي شواهد بديعة من هذا الفن الرفيع •

٢ ـ الاستخدام :

وفي قوله « لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » فن رفيع من فنون البلاغة أطلق عليه علماء هـذا الفن اسم : « فن الاستخدام » وعزفوه بتعريفات لا تخلو من غموض وسنحاول بسط ما أجملوه فأما تعريفه كما أورده ابن أبي الاصبع وابن منقـذ وصاحب نهاية الأرب فهو : أن يأتي المتكلم بلفظة لها محملان ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما وتستخدم كل لفظة منهما أحد محملي اللفظة المتوسطة ، ففي الآية المذكورة لفظـة « كتاب » تحتمل الأمد المحتوم بدليل قوله تعالى في البقرة « حتى يبلغ الكتاب أجله » أي حتى يبلغ الكتاب أمده أي أمد العدة وأجله منتهاه والكتاب المكتوب وقد توسطت لفظه كتاب بين لفظتي « أجل » و « يمحو » فاستخدمت لفظة أجل أحد مفهوميها وهو الأمد واستخدمت لفظة يمحو مفهومها الآخر وهو المكتوب فيكون التقدير عـلى ذلك لكـل حد مؤقت مكتوب يمحي ويثبت •

وهنالك تعريف آخر يتمشى على طريقة صاحب الايضاح ومشى عليه كثير من الناس وهو أن الاستخدام اطلاق لفظ مشترك بين معنيين فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الآخر أو تعيد عليه إن شئت ضميرين تريد بأحدهما أحد المعنيين وبالآخر المعنى الآخر ومثال هذا النوع قول القائل :

إذا نزل السماء بأرض قــوم   رعينــــاه وإن كانـــوا غضابا

فلفظة السماء يراد بها المطر وهو أحد المعنيين والضمير في رعيناه يراد به المعنى الآخر وهو النبات وأما شاهــــد الضـــمـيرين فمثالــه قول البحتري :

فسقى الغضا والساكنيه وان هــم
شبّـــوه بـــين جوانحي وضلوعي

فإن لفظة الغضا محتملة الموضع والشجر والسقيا صالحة لكــل منهما فلما قال والساكنيه أحد معنى اللفظة وهو الموضع بدلالة القرينة عليه ولما قال شبوه استعمل المعنى الآخر وهو الشجر بدلالـــة القرينة عليه ، وقد أورد الشيخ عز الدين الموصلي في شرح بديعيته نقداً حسناً لبيت البحتري فقد قال : « شرط علماء البديع أن يكون اشتراك لفظة الاستخدام اشتراكاً أصلياً والنظر هنا في اشتراك لفظة الغضا فإنه ليس بأصلي لأن أحـــد المعنيين منقول من الآخر والغضا في الحقيقة الشجر وسموا الوادي غضا لكثرة نبته فيه وقالوا جمر الغضا لقوة ناره فكل منقول من أصل واحد »

ومن الاستخدام قول أبي العلاء في داليته الشهيرة :

قصد الدهر من أبي حمزة الأ   واب مولى حجا وخدن اقتصاد
وفقيهـــا أفكـــاره شدن للنعمـــــان ما لــم يشده شعر زيـــاد

فالنعمان يحتمل هنا أبا حنيفة رحمه الله ويحتمل النعمان بن المنذر وقد أراد أبو العلاء بلفظ النعمان أبا حنيفة بدليل قوله وفقيهاً وأراد

بالضمير المحذوف النعمان بن المنذر ملك الحيرة بدليل زياد وهو النابغة وكان معروفاً بمدح النعمان بن المنذر وقد انتقدوه أيضاً لأن ضمير يشده لم يعد على واحد منهما لأن شرط الضمير في الاستخدام أن يكون عائداً على اللفظة المشتركة ليستخدم بها معناها الآخر كما قال البحتري في شبوه فهذا الضمير عائد على الغضا وهذا قد جعل الضمير في يشده غير عائد على اللفظة المشتركة التي هي النعمان فصار طيب الذكر الذي شيده زياد لا يعلم لمن هو لأن الضمير لا يعود على النعمان •

سورة ابراهيم

مكية وآياتها اثنتان وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)

الاعراب :

(ألر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور) ألر تقدم إعرابها وكتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب وجملة أنزلناه صفة واليك متعلقان بأنزلناه واللام لأم التعليل وتخرج فعل

مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والناس مفعول به ومن الظلمات متعلقان بتخرج والى النور منعلقان بتخرج أيضاً • (بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) بإذن متعلقان بمحذوف حال أي حال كونك مأذوناً من ربك وربهم مضاف اليه والى صراط بدل من قوله الى النور باعادة العامل والعزيز مضاف اليه والحميد صفة • (الله الذي له مافي السموات ومافي الأرض) الله بالجر بدل أو عطف بيان للعزيز الحميد وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو الله المتصف بملك مافي السموات ومافي الأرض ، والذي صفته وله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر والجملة صلة الذي وفي السموات صلة ما وما في الأرض عطف على مافي السموات • (وويل للكافرين من عذاب شديد) ويل مبتدأ سوغ الابتداء به قصد الدعاء على الكافرين وسيأتي مزيد بحث عن هذه الكلمة في باب الفوائد والجملة دعائية لا محل لها وللكافرين خبر ومن عذاب نعت لويل أو متعلقان بويل فعلى الأول تكون من بيانية وعلى الثاني تكون للتعدية وشديد صفة وفي تفسير أبي السعود : ومن عذاب شديد متعلقان بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين يا ويلاه كقوله دعوا هنالك ثبورا ، ومنع أبو حيان تعليقها بويل قال : « ومن عذاب شديد في موضع الصفة لويل ولا يضير الفصل بالخبر بين الصفة والموصوف ولا يجوز أن يكون متعلقاً بويل لأنه مصدر ولا يجوز الفصل بين المصدر وما يتعلق به الخبر • (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) الذين نعت للكافرين أو مبتدأ خبره جملة أولئك في ضلال بعيد الآتية ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين يستحبون وجميع هذه الأوجه متساوية في الأرجحية فلذلك ذكرناها وجملة يستحبون صلة والحياة مفعول به والدنيا صفة وعلى الآخرة متعلقان بيستحبون ، لأنها بمعنى

الايثار والاختيار وهي استفعال من المحبة لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ اليها وأفضل عندها من الآخر ٠ (ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً) ويصدون عطف على يستحبون وعن سبيل الله جار ومجرور متعلقان بيصدون ويبغونها عطف على يصدون ويبغون فعل وفاعل والهاء نصب بنزع الخافض أي يبغون لها وعوجاً مفعول به ٠ (أولئك في ضلال بعيد) اسم الاشارة مبتدأ وفي ضلال خبره وبعيد صفة لضلال وفي جعل الضلال ظرفاً فن بلاغي سنعرض له في باب البلاغة ٠ (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) الواو استئنافية والجملة مستأنفة لبيان وسيلة المخاطبة التي يضطلع بها كل رسول لأمته وما نافية وأرسلنا فعل وفاعل ومن زائدة ورسول مجرور لفظاً منصوب على المفعولية محلاً وإلا أداة حصر وبلسان قومه حال أي ملتبساً بلسان قومه فهو استثناء من أعم الأحوال وليبين اللام للتعليل ويبين مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ولهم متعلقان بيبين ٠ (فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء) الفاء استئنافية ويضل مرفوع على الاستئناف ولا يجوز عطفه على يبين كما يتوهم لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى والرسل أرسلت للبيان لا للإضلال ، قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، على أن الزجاج قال : « ولو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة جاز » ويضل الله فعل مضارع وفاعل ومن مفعول به ويشاء صلة ويهدي من يشاء عطف على يضل الله من يشاء ٠ (وهو العزيز الحكيم) هو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان ٠

البلاغــة :

انطوت هذه الآيات الأربع على فنون من البلاغة نوجزها فيما يلي:

١ ـ الظلمات والنور استعارتان تصريحيتان للضــلال والهدى وقد تقدم نظائرها فلا حاجة للاعادة .

٢ ـ في اسناد البعد الى الضلال مجاز عقلي لأن البعد في الحقيقة الضال لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله كما تقول جد جده وداهية دهياء .

٣ ـ فيجعل الضلال ظرفاً مجاز أيضاً كأنه قد أحاط بهم وجلببهم بسوادة فهم منغمسون فيه الى الأذقان يتخبطون في متاهاته ويتعسفون في ظلماته .

٤ ـ في جعل اللسان لغة مجــاز علاقته السببية لأنه آلة النطق لأنَّ معنى بلسان قومه : بلغة قومه واللسن واللسان كالريش والرياش وسيأتي في باب الفوائد تفصيل مسهب عن لغة القرآن واللهجات السبع التي قرىء بها . ووحد اللسان لأن المراد اللغة ، وقد قيل في هذه الآية إشكال لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل الى الناس جميعاً ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة وأجيب بأنه إن كان صلى الله عليه وسلم مرسلاً الى الناس كافة لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب اليه كان ارساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهماً له كفهمهم إياه ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل اليهم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحاً لباب التنازع على

مصراعيه لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها مالا يعرفه غيرها ، وربما كان أيضاً مفضياً الى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون .

٥ - الطباق بين يضل ويهدي وجميع هذه الفنون تقدم بحثها في مظانها .

الفوائد :

في هذه الآيات من الفوائد ما يستوعب الاجلاد ولكننا جرياً على نهج الكتاب سنجتزىء بما لا بد من ذكره فيما يلي :

١ - (ويل) :

كلمة وعيد وتهديد وهو نقيض الوأل أي النجاة اسم بمعنى الهلاك إلا أنه لا يشتق منه فعل إنما يقال ويلاً له فينصب نصب المصادر ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات فيقال ويل له كسلام عليك وفي المختار الوائل الملجأ وقد وأل اليه أي لجأ وبابه وعد وءولاً بوزن وجود ، وويل زيد وويحه منصوبان على المصدرية وقيل ويل كلمة عذاب وويح كلمة ترحّم .

٢ - لغة القرآن ورأي الدكتور طه حسين :

لغة القرآن :

علم قائم بذاته ويظهر أن الحديث الشريف « نزل القرآن على سبعة أحرف » كان سبباً في نشوء هذا العلم من علوم القرآن وأحدث الدراسات فيه وأقومها ما قرره الدكتور طه حسين في كتابه الادب

الجاهلي وفيما يلي خلاصة هذا البحث القيم : يثبت الدكتور طـه أن هنالك خلافاً جوهرياً بين اللغـة التي يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية واللغة التي كانوا يصطنعها في شمال هذه البلاد وينتهي من إثبات ذلك الى القول بأن القـدماء المحـدثين مضطربون في تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ العرب وفي تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ اللغة العربية وهـذا الاضطراب ليس من شأنه أن يعين ع لى التحقيق العلمي ثم يمضي الأستاذ في ذكر الفروق بين لغة عرب الجنوب وعرب الشمال ويورد بعض النصوص التي كشفها الأستاذ جويدي من اللغة الحميرية وكيف أنها تختلف اختلافات كثيرة جداً عن اللغة الحجازية القرشية التي نعرفها ومثال هذا النص الذي يقول : « وهبم واخهو بنو كلبت هقنيو الى مقه ذهرن ذن فرندن حجن وقههمو بمسألهو لوفيهمو وسعدهمو نعمتم » ومعناها : « وهاب (اسم رجل) وأخوه بنو كلب أعطوا المقه (اسم إله في هران) هذا اللوح لأنه أجابهـم عن سؤالهم وسلمهم وساعدهم بنعمته » ويمضي في هـذا البحث الطويل الى أن يقول : « إن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تبايناً كثيراً حيـّر القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه واقاموا له علماً أو علوماً خاصة ولسنا نشير هنا الى هذه القراءات التي تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً في ضبط الحركات سواء أكانت حركة بنية أو حركة إعراب ، لسنا نشير الى اختلاف القراء في نصب الطير في الآيـة : « يا جبال أوّبي معه والطـير » أو رفعهـا ولا إلى اختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » انما نشير الى اختـلاف آخر في القراءات يقبله العقـل ويسيغه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي

لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش فقرأته كما كانت تتكلم فأمالت حيث لم تكن تميل ، وقصرت حيث لـم تكن تقصر وسكنت حيث لم تكن تسكن وأدغمت أو أخفت أو نقلت حيث لـم تكن تدغـم ولا تخفي ولا تنقل .

وقفة لا بد منها :

وهنا وقفة لا بد منها ذلك أن قوماً من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي نزل بها جبريل على قلبه فسنكرها كافر في غير شك ولا ريبة ولم يوفقوا الى دليل يستدلون به على ما يقولون سوى ما روي في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، والحق أن هذه القراءات السبع ليست من الوحي في قليل ولا كثـير وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً ولا مغتمزاً في دينه وإنما قراءات مصدرها اللهجات واختلافها ، للناس أن يجادلوا فيها وأن ينكروا بعضها ويقبلوا بعضها وقد جادلوا فيها بالفعل وتماروا وخطأ فيها بعضهم بعضاً ولم نعرف أن أحداً من المسلمين كفّر أحداً لشيء من هذا ، وليست هـذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها وانما هي شيء وهذه الأحرف شيء آخر فالأحرف جمـع حرف والحرف : اللغة فمعنى أنزل القرآن على سبعة أحرف أنه أنزل على سبع لغات مختلفة في لفظها ومادتها يفسر ذلك قول ابن مسعود : إنما هو كقولك هلم وتعال وأقبل ويفسر ذلك قول أنس في الآية : « إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأصوب قيلاً » أصوب وأقوم وأهـدى واحد ويفسر ذلك قراءة ابن مسعود « ما ينظرون إلا زقية واحدة » مكان « ماينظرون إلا صيحة واحدة » .

الأحرف غير القراءات :

الأحرف إذن اللغات التي تختلف فيما بينها لفظاً ومادة فأما هذه القراءات التي تختلف في القصر والمد وفي الحركة والسكون وفي النقل والإثبات وفي حركات الاعراب فليست من الأحرف في شيء لأنها اختلاف في الصورة والشكل لا في المادة واللفظ وقد اتفق المسلمون على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف أي على سبع لغات مختلفة في ألفاظها ومادتها ، واتفق المسلمون على أن أصحاب النبي تماروا في هذه الأحرف السبعة كل" يقرأ على الحرف الذي سمعه من النبي فاشتد الخلاف والمراء في ذلك حتى كادت الفتنة تقع بين الناس ولا سيما في جيوش المسلمين التي كانت تغزو وترابط في الثغور بعيدة عن مهبط الوحي ومستقر الخلافة فرفع الأمر الى الخيفة عثمان رضي الله عنه فجزع له وأشفق على المسلمين أن يقع بينهم مثل ما وقع بين النصارى من الاختلاف في نص القرآن كما اختلفوا في نص الانجيل فجمع لهم المصحف وأذاعه في الأمصار وأمر بما عداه من المصاحف فمحي محواً وعلى هذا محيت الأحرف الستة ولم يبق إلا حرف واحد هو هذا الحرف الذي نقرؤه في مصحف عثمان وهو حرف قريش وهو الحرف الذي اختلفت لهجات القراء فيه فمد" بعضهم وقصر بعضهم وفخّم فريق ورقّق فريق ونقلت طائفة وأثبتت طائفة ثم أورد الدكتور طه ما ورد في الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبري لتأييد رأيه •

خلاصة قول الطبري :

قال ابن جرير ما ملخصه : إن قوماً من العلماء ذهبوا إلى أن الأحرف السبعة هي سبعة معان جملتها : الأمر والنهي والوعد والوعيد

والجدل والقصص والمثل ، ولكنه يعارض هذا ويقول : إن الأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات احياء من قبائل العرب مختلفة الألسن وذكر أن أصحاب رسول الله تماروا في تلاوة بعض القرآن فاختلفوا في قراءته دون تأويله وأنكر بعض" قراءة بعض مع دعوى كل قارىء منهم قراءة منها أن رسول الله أقرأه ما قرأه بالصفة التي قرأ ثم احتكموا الى رسول الله فكان من حكم رسول الله بينهم أن صوّب قراءة كل قارىء منهم على خلاف قراءة أصحابه الذين نازعوه فيها وأمر كل امرىء منهم أن يقرأ كما علم حتى خالط قلب بعضهم الشك في الاسلام لما رأى من تصويب رسول الله قراءة كل منهم على اختلافها ثم جلاه الله ببيان رسول الله له أن القرآن على سبعة أحرف .

وعرض الطبري لنقطة هامة وهي الرد على سؤال المستفسرين : فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ، وقد أقرأهن رسول الله أصحابه وأمر بالقراءة بهن وأنزلهن الله من عنده على نبيه ؟ أنسخت فرفعت ؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتهن الأمة؟ فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه أم ما القصة في ذلك ؟ وأجاب ابن جرير على هذه الأسئلة المحرجة جواباً بارعاً فقال : لم تنسخ الأحرف الستة فترفع ولا ضيّعتها الأمة وهي مأمور بحفظها ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت وضرب لها مثلاً في الفقه : إذا حنث موسر في يمين فله أن يختار كفارة من ثلاث كفارات : اما بعتق أو اطعام أو كسوة ، فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته وخيرت في قراءته بأي الأحرف السبعة شاءت قرأت ، ولعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد قراءته بحرف واحد ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له في قراءته به .

رأي السيوطي في الاتقان :

أما السيوطي فقد أكد في كتابه « الاتقان » صحة الحديث بشهادة واحد وعشرين صحابياً ذكروه ثم أراد عثمان بن عفان أن يستوثق من صحته فطلب من المسلمين وهم مجتمعون في المسجد أن يقف منهم من سمع هذا الحديث فوقف من في المسجد كلهم ، فقال وأنا أشهد معهم ، وانتقل السيوطي الى بحث الأقوال التي قيلت في هذا الحديث فإذا هي نحو أربعين قولاً وبدأ فأضاف إشكالاً الى الاشكالات الموجودة في هذا الموضوع فقال : انه ليس المراد بالسبعة حقيقة العـدد ، بل المراد التيسير والتسهيـل والسعة ولفظ السبعة يطلق عـلى ارادة الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون في العشرات ولكنه ردّ هذا القول بأن في القرآن آيات كثيرة تقرأ على أكثر من سبعة أوجه ومنها ما يقرأ على أقل ومنها ما تغيرت حركته ولم يتغير معناه ولا صورته (مادة اللفظ) ومنها ماذكره الطبري من اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني وذكر الطحاوي أن ذلك كان رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط واتقان الخط ثم نسخ بزوال العـذر وتيسر الكتابة والحفظ وضرب مثلاً لهذا أن عبد الله بن مسعود كان يعلّم رجلاً القرآن فتلا عليه (طعام الاثيم) فقال الرجل : طعام اليثيم فردّها عليه فلم يستقم لسانه بها فقال : أتستطيع أن تقول طعام الفاجر ؟ قال : نعم ، قال : فافعل •

وقول آخر ذهب اليه الكثـير من العلماء مثل أبي عبيد وثعلب والزهري وهو : ان الأحرف السبعة هي لغات سبع فلما قيـل لهم إن لغات العرب أكثر من سبع أجابوا أن المراد هو أفصحها •

ولأبي عبيـد رأي قيم وهو أن في القرآن سبع لغات متفرقة فيه فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن وغيرهم أي أن في القرآن ألفاظاً وجملاً مما كانت تعرف هذه القبيلة وهذه القبيلة .

ومضى السيوطي يعرض طائفة أخرى من الأقوال لا أهمية لها ثم أنهى كلامه بقوله : لقد ظن كثير من العوام أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع وهو جهل قبيح .

خلاصة وافية :

ويطول بنا البحث إن رحنا تتقصى ما قيل في هذا الصدد أو نبحث الأصول التي تمتد اليها اللغة العربية فبامكان القارىء أن يرجع اليها في الكتب المؤلفة بهـذا الشأن وحسبنا أن نقـول الآن : ان القرآن نزل باللغة العربية القرشية التي ذابت فيها اللغات الأخرى ولغـات القبائل المجاورة بنوع خاص وقد فهـم الصحابة القرآن إجمالاً ولكن ألفاظاً غير قليلة استغلقت عليهم بل ان بعضهـا لا يزال مستغلقاً علينا اليوم بالرغم من أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا وقد روي أن عمر بن الخطاب لم يفهم كلمة « أبا » من قوله « وفاكهة وأبا » وله العذر فهي كلمة حبشية وروي عن ابن عباس أن اعرابيين اختصما لديه في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها وعارضه الثاني ، قال ابن عباس : ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى « فاطر السموات والأرض » وروي عن ابن عباس أيضاً انه لم يكن يفهم معنى الآية « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » حتى سمع فتـاة من اليمن « بنت ذي يزن » تنادي زوجها : أناتحك تقصد أحاكمك .

وقد ذكر ابن النقيب في خصائص القرآن أن القرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير وقد سبق أن أوردنا هذا القول ومن الألفاظ غير العربية التي فطن الأقدمون الى وجودها في القرآن ما يأتي :

إستبرق : يونانية
أبلعي ماءك : هندية أو حبشية
الأرائك : حبشية
إصر / اي / عهد : نبطية
أواب : المسيح بالحبشية
بطائنها : أي ظواهرها بالقبطية
تنور : فارسية
جهنم : يونانية أو فارسية
حواريون : أي غسالون بالحبشية
دري : أي مضيء بالحبشية
السجل : الكتاب بالحبشية
الرس : أي البئر باليونانية
سريا : قيل سريانية أو نبطية أو يونانية
الصراط : الطريق بلغة الروم
عدن : الكروم بالسريانية
غيض : أي نقص بالحبشية
القسط : العدل بالفارسية
قسورة : الأسد بالحبشية
كفلين : ضعفين بالحبشية
مشكاة : الكوة بالحبشية
منسأة : عصا بالنبطية
اب : حبشية
أخلد : عبرية
أسفار : سريانية أو نبطية
أليم : موجع قالوا زنجية أو عبرية
الاداة : الموقن بالحبشية
حصب : بمعنى حطب في الزنجية
دينار : فارسية .
رهواً : سهلاً بالسريانية .
سجيل : فارسية
سندس : فارسية وهندية
الطاغوت : الكاهن بالحبشية
غساق : المنتن البارد بالتركية
الفردوس : البستان بالرومية
القسطاس : الميزان بالفارسية
كافور : بالفارسية
انيم : البحر بالسريانية والقبطية
ناشئة الليل : بالحبشية
وزر : الملجأ بالنبطية

كوّرت : أي غورت بالفارسية	هيت لك : بالقبطية
مرقوم : مكتوب بالعبرية	ياقوت : بالفارسية
مناص : فرار بالنبطية	يحور : يرجع بالحبشية
المهل : الزيت بلسان البربر	يعهد : أي ينضج بالبربرية
هونا : بالسريانية	الفوم : الحنطة بالعبرية

وقد أورد السيوطي في الاتقان هذه الألفاظ وغيرها كما أورد مئات الألفاظ وردت في القرآن بغير لغة الحجاز ومنها لغات اليمن وقد نص على كثير من الألفاظ الحميرية بالذات فقد ذكر مثلاً أن أسطوراً بلغة حمير تعني الكتاب وعلى هذا يفهم قوله : « وكتاب مسطور » وذكر أن اللهو تعني المرأة بلغة اليمن وعلى هذا تفهم الآية « لو أردنا أن تتخذ لهواً » ترى ما الذي يمنع وقد صح لدينا أن أمر الألفاظ القرآنية والمصادر العديد التي جاءت منها أن تكون الأحرف السبعة هي هذه اللغات العديدة التي ذابت في لغة قريش والتي علم النبي بعضها والتي تضمنتها ألفاظ القرآن .

اننا نرجح مبدئياً وليس لدينا وسائل الجزم النهائي أن هذا هو الصواب في شأن الأحرف السبعة فهي تشير الى ألفاظ كثيرة من لغات عدة استعملها القرآن منها الفارسية واليونانية والآرامية والكلدانية والحبشية والحميرية والعبرية والسريانية والمصرية وكلها أضيفت الى لغة قريش فقوت من شأنها وأزالت الركاكة والغثاثة التي كانت موجودة في لغة القبائل الأخرى التي كانت تفد الى الحج وهي التي تلتزم حروفاً بدل حروف مثل ابدال كاف المؤنث شيناً فيقولون كتابش بدل كتابك وعليه قوله :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق

وأصله :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

وهي قبيلة قيس ومثل الذين لايستطيعون النطق بالسين فيستبدلون بها تاء فالناس عندهم النات وهم قبيلة تميم .

خلا القرآن من هذه اللهجات الكثيرة والتزم الاعراب في أواخر الكلمات جميعاً ولم يكن ملتزماً في كثير من اللغات الاخرى وعرفه النبي وهو متلقي الوحي ومعلم القرآن الأول تفسير ما أنزل عليه كله وما سأله عنه أصحابه كان يخبرهم به ولعلهم كانوا يتحاشون سؤاله في كثير من الألفاظ بدليل جهلهم بها بعد وفاته ونهيهم عن التكلف والتعمق أي البحث في معنى كل لفظ والتنقيب وراءه وليس هذا الذي نقوله في أمر ألفاظ القرآن وإنما هي الأحرف السبعة قولاً شاذاً لم يقل به أحد وانما قال به كثيرون منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب وأبو حاتم السجستاني وغيرهم .

واذن فمن الخطأ كل الخطأ أن نقول أن قرآناً نزل ليكون معجزة نبي ثم نقول : إنا قادرون على أن نبدل لفظاً مكان لفظ لأن لدينا الكثير من الألفاظ أي المترادفات . استمع الى هذه الآية : « للذين آمنوا انظرونا » ثم نقرؤها على الأحرف التي يقولون عنها هكذا « للذين آمنوا امهلونا » أو « للذين آمنوا ارقبونا » ولنترك للقارىء أن يدقق النظر قليلاً ويطيل التفكير ليرى هل يتفق معنى هذه التعابير كلها وهل يبقى لها مكانها من الاعجاز وهي بهذه الصورة واسمع الى الآية الأخرى : « كلما أضاء لهم مشوا فيه » و « كلما أضاء لهم مروا فيه » و « كلما

أضاء لهم سعوا فيه » من يقل أن مشى وسعى ومر متساوية في الاستعمال فهو جاهل كل الجهل خابط في عشواء من الضلال •

الأحرف السبعة ، إذن ، شيء آخر غير هذه التعديلات والتبديلات وأدنى الى الصواب في توضيحها ما ذكرناه من تضمن القرآن الكثير من الألفاظ الأعجمية التي دخلت اليه والى لغة قريش من الشعوب المحيطة بشبه الجزيرة وسيأتي مزيد بيان لهذا البحث الجليل الذي طال قليلاً ولم يكن من شرط الكتاب •

ونذكر بهذه المناسبة أن المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد وضع كتابيه : « أبو الأنبياء : الخليل ابراهيم » و « الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين » وتصدى فيهما لقضية لغة خليل الرحمن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ورد على المنحرفين الذين يريدون أن ينحرفوا ببحوثهم في اتجاه معين مسبوق بتخطيط ينسلخ بسببه العرب عن صلتهم بالخليل وأثبت صلة ابراهيم الوثيقة بالعروبة في وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد ونرى تتميماً لبحثه الرفيع أن نورد حديثاً ساقه الامام البخاري في صحيحه ورواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد استوعب هذا الحديث صفحات عدة من هذا السفر العظيم نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما يأتي :

١ ــ تحدث عن الشخصيات الطاهرة التي نزلت بمكة وقت كان ليس بها أحد ولا ماء وهم : الخليل ابراهيم وهاجر وابنها الرضيع اسماعيل •

٢ ــ نبع زمزم لهاجر وولدها •

٣ ـ قدوم بطن عربي جرهمي واستئذانه هاجر في السماح له بالاقامة في مكة راضين بشرطها « أن لا حق لهم في الماء » واستقدموا أهلاً لهم وقد شب اسماعيل عليه السلام بينهم وتزوج منهم مرتين •

٤ ـ زيارات ثلاث للخليل الى مكة لوديعته عدا الأولى التي قدم فيها بأهله اليها ، وكان آخرها تلك الزورة مع ولده وأمر فأذن في الناس بالحج •

وهذا الحديث يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ في منهجه الحديث •

أولها : بيانه الواضح عن مبدأ تاريخ العمران في مكة •

ثانيها : يوضح حلقة مفقودة لدى المؤرخين عن ممالك الاسماعيليين في شمال الجزيرة العربية •

ثالثهما : لغة الخليل فقد زار الخليل مكة أربع زيارات وتزوج اسماعيل امرأتين من جرهم وكان يخاطبهما ويحاورهما بالعربية حتماً دون مترجم ، فصحّ ما قاله العقاد ولسنا نقول أنه تحدث بالعربية التي هي عربيتنا أعني لغة القرآن الكريم لكنها عربية زمانه الوثيقة الصلة أصولاً وفروعاً بعربية القرآن الكريم •

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

اللغــة :

(يسومونكم) يذيقونكم وأصله من سام السلعة يسوم سوماً وسواماً عرضها وذكر ثمنها ، وسام المشتري السلعة طلب بيعها أو ثمنها وسامت الماشية خرجت الى المرعى وسامه الأمر كلفه اياه وسامه خسفاً أذله ، قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا

وسام الطير على الشيء حام عليه وسامت الريح مرّت واستمرّت وسام ناقته على الحوض : عرضها عليه .

ومن المجاز سمت المرأة المعانقة : أردتها منها وعرضتها عليها وللسين مع الواو فاء وعيناً خاصة عجيبة انهما تفيدان الكلمة معنى الاحاطة بالشيء والهيمنة عليه وشموله وتغطيته لأن المحيط بالأشياء شامل لها مهيمن عليها ، فالسوء القبح وهو يحيط بصاحبه ويلفه ، كما يحيط بمن يمتد اليهم ويصيبهم وقال تعالى « عليهم دائرة السوء » وفلان يحيط الحسنى بالسوءى ، وهذا مما ساءك وناءك ومما يسوءك وينوءك قال الجاحظ : هو من السوء : البرص وقال أبو زبيد :

لم يهب حرمة النديم وحقّت يا لقومي للسوءة السوآء

وسوّج وسيّج الكرم ونحوه أو علـى الكرم عمل عليه سياجاً يحوطه ويصونه والسياج بكسر السين الحائط وما أحيط به على كرم ونحوه وجمع السياج سياجات وأسوجة وسُوج وعملت سفينة نوح من ساج وهي خُشُب سود رزان لا تكـاد الأرض تبليها ، والبسوا السيجان وهي الطيالسة المـدورة الواسعة ، والساحـة فضاء بين دور الحي يحيط بها لا بنـاء فيه ولا سقف وجمعه ساح وسوح وساحات ويقولون : احمر اللّوح واغبرّت السوح إذا وقـع الجـدب وقال أبو ذؤيب :

وكان سيّان أن لا يسرحوا نعمـاً

أو يسرحوه بهـا واغبرت السُّوح

وساخت قوائم الدابة في الأرض وهذه أرض تسوخ بها الأقدام وساخت بهم الأرض ، وساد قومه يسودهم كأنما أحاطهم بنعمته وغلبته وساده أي غلبه عند المغالبة والسواد خلاف البياض وهو لون يحيط بالجسم أو بالشيء والسواد الشخص سواد البلـدة ما حولها من الريف والقرى ومنه سواد العراق لما بين البصرة والكوفة ولما حولهما من القرى وقد أبدع شوقي في قوله :

قف تمهـل وخذ أماناً لقلبي من عيون المهـا وراء السواد

والأسود معروف والأسود الحية العظيمة السوداء وهي المعروفة بالحنش وفلان أسود الكبد أي عـدو وهم سود الأكباد أي أعـداء والسوداء والسويداء عند الأطباء خلط مقره في الطحال مرض الماليخوليا وهو فساد الفكر في حزن وسوداء القلب وسويداؤه حبته ، وساوره

وثب عليه وله سورة في الحرب وتسورت الحائط والسور حائط يطوف بالمدينة ويحيط بها وسورة الخمر وسُوارها حدتها والسوار حلية كالطوق تلبسه المرأة في زندها وهو بكسر السين وضمها ويقال الإسوار ، والوالي يسوس الرعية ويسوس أمرهم وسوس فلان أمر قومه بالبناء للمجهول قال الحطيئة :

لقد سُوِّست أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين

والسياسة استصلاح الخلق بإرشادهم الى الطريق المنجي في العاجل أو الآجل ولا جرم من يسوس القوم يحيط بأمورهم ، وساطه يسوطه سوطاً ضربه بالسوط ولا يضرب إلا من هيمن على الآخر وعليه ، والساعة الوقت المعلوم وهو يحيط بالموجودات جميعها فلا يندّ عنها شيء ، وساغ الشراب سهل فكأنه غالب لا يقف شيء في طريقه ، وساف الشيء شمّه وفيه معنى الاحاطة والهيمنة وسوّفه مطّله وقال له مرة بعد مرة وكم مسافة هذه الأرض والمسافة تحيط بما يمتلكه صاحب الأرض وبينهم مسلوف جمع مسافة ، قال ذو الرمة :

فقام الى حرف طواها بطية بها كل لمّاع بعيد المساوف

وساق النعم فانساقت والسوق معروفة تحيط بما يعرض فيها من شخوص وبضائع وأمتعة ، وساك يسوك سوكاً دلك ، وسوّل الشيطان له أمراً غلبه على أمره فزين له الشر ، وسوّى بين الناس ساوى بينهم وسويت المعوج فاستوى والرحمن على العرش استوى أي استولى ورآه في سواء المكان: في وسطه وسوي الرجل استقام أمره ولا يستقيم الأمر إلا لمن غلب وهما سواء وهم سواسية في الشر وهذا من عجيب أمر هذه اللغة •

(يستعيون) : يستبقون •

الاعراب :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) جملة مستأنفة مسوقة للشروع في تفصيل ما أجمله عن الرسل في قوله تعالى « وما أرسلنا من رسول » واللام جواب قسم محذوف ، وأرسلنا فعل وفاعل وموسى مفعول به وبآياتنا متعلقان بمحذوف حال أي مصحوباً بآياتنا ومعززاً بها • (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) ان مفسرة والضابط لها موجود وهو أن يتقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه وأرسلنا فيه معنى قلنا أي قلنا له أخرج ويجوز أن تكون أن المصدرية الناصبة للفعل وانما صلح أن توصل بفعل الأمر لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر وغيره سواء في الفعلية وتكون مع مدخولها منصوبة بنزع الخافض والتقدير بأن اخرج قومك والجار والمجرور متعلقان بمحذوف منصوب على الحال أي قائلين له اخرج قومك وعلى هذا يكون اعرابها تفسيرية أقل عناء ما دام التقديران يرتدان الى أصل واحد • وقومك مفعول به لأخرج ومن الظلمات الى النور متعلقان بأخرج • (وذكرهم بأيام الله) الواو عاطفة وذكرهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وبأيام الله متعلقان بذكرهم وسترى بحثاً مفيداً عن قوله أيام الله في باب الفوائد • (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة للتوكيد وآيات اسم ان المؤخر ولكل صفة وصبار مضاف اليه وشكور صفة لصبار • (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) الظرف متعلق بمحذوف يفسره ما بعده وهو اذكروا أي اذكر وجملة قال موسى مضاف اليها الظرف ولقومه متعلقان بقال واذكروا فعل أمر والواو

فاعل ونعمة الله مفعول به وعليكم متعلقان بمحذوف حال أي كائنة عليكم • (إذ أنجاكم من آل فرعون) الظرف متعلق بنعمة الله إذا كانت بمعنى الإنعام أي إنعامه ذلك الوقت ويجوز أن تكون بدلاً من النعمة لأن النعمة تشتمل على النجاة فيكون بدل اشتمال ومن آل فرعون جار ومجرور متعلقان بأنجاكم • (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أحوال ثلاثة من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين • (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) الواو عاطفة وفي ذلكم خبر مقدم وبلاء مبتدأ مؤخر ومن ربكم صفة بلاء وعظيم صفة ثانية •

الفوائد :

(أيام الله) هي — كما في القاموس — نعمه ، ويوم أيوم : شديد، وآخر يوم في الشهر وفي المختار : وربما عبروا عن الشدة باليوم • وهذا من باب المجاز العقلي ووجهه أن العرب تتجوز بنسبة الحدث الى الزمان مجازاً فتضيفه اليه كقولهم نهاره صائم وليله قائم ومكر الليل ويترجح تفسير أيام الله ببلائه ونعمائه وجنح الزمخشري الى تفسير أيام الله بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود • قال ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار وغيرها وقد خبر عنها عمر بن كلثوم بقوله :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ

وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

اللغــة :

(تأذن) : أذن ونظير تأذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل ولا بد في تفعل زيادة معنى ليس في أفعل لما في التفعل من التكلف والمبالغة .

الاعراب :

(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) وإذ عطف على نعمة الله عليكم كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ويجوز عطفه على اذ انجاكم وجملة تأذن مضاف اليها الظرف وربكم فاعل تأذن وجملة لئن شكرتم مقول قول محذوف أو أجري تأذن مجرى قال لأنه ضرب من القول فلا حاجة لتقدير القول واللام موطئة للقسم وإن شرطية وشكرتم فعل الشرط ولأزيدنكم اللام جواب القسم وجملة لأزيدنكم لا محل لها لأنها جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم وفاقاً للقاعدة • (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) جملة معطوفة على نظيرتها وجواب القسم محذوف ولكنه مدلول عليه ضمناً بقوله : إن عذابي لشديد أي لأعذبنكم وانما حذفه هنا وأظهره في مقام الشكران لأن من عادة الله وهو الكريم أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ، وإن واسمها وخبرها • (وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد) وقال موسى فعل وفاعل وجملة إن تكفروا مقول القول وان شرطية وتكفروا فعل الشرط والواو فاعل وأنتم تأكيد للواو ومن عطف على الواو وفي الأرض صلة من وجميعاً حال والفاء رابطة وان واسمها واللام المزحلقة وحميد خبرها • (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويأت فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف مفعول به ونبأ فاعل والذين مضاف اليه ومن قبلكم صفة • (قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله) قوم بدل من الذين ونوح مضاف اليه وعاد وثمود معطوفان والذين من بعدهم

مبتدأ وجملة لا يعلمهم إلا الله خبر والجملة الاسمية معترضة بن المفسَر
وهو نبأ الذين من قبلكم وتفسيره وهو جاءتهم عليهم بالبينات ويجوز
أن تكون والذين من بعدهم عطف على ما قبله وهو قوم نوح أو الذين
من قبلكم وقوله لا يعلمهم إلا الله معترضة • (جاءتهم رسلهم بالبينات)
جملة مستأنفة أو خبر ثان للـذين ورسلهم فاعـل وبالبينات متعلقان
بجاءتهم • (فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به)
الفاء عاطفة وردوا فعل وفاعل وأيديهم مفعول به وفي أفواههم متعلقان
بردوا أو بمحذوف حال وسيأتي بحث عن هذا التعبير في باب البلاغة
وقالوا عطف عـلى ردوا وان واسمها وجملة كفرنا خبر وبما متعلقان
بكفرنـا وجملـة أرسلتم صلـة وبـه متعلقـان بأرسلتـم (وإنـا
لفي شـك ممـا تدعوننـا إليه مـريب) وإنـا عطـف عـلى إنـا
السابقة وان واسمها واللام المزحلقة وفي شك خبر ومما متعلقان بشك
أو صفـة له وجملة تدعوننا صلة وإليه متعلقان بتدعوننا ومريب صفة
لشك • (قالت رسلهم أفي الله شك) جملة مستأنفة مبنية عـلى سؤال
مقدر يقتضيه المقام كأنه قيـل فماذا قالت رسلهـم فأجيب بأنهم قالوا
منكرين فالهمزة الاستفهامية للانكار من مقالتهم الحمقاء وفي الله خبر
مقدم وشك مبتدأ مؤخر وقيل شك فاعل أفي الله لاعتماده على الاستفهام
ورجحه النحاة القدامى وجميع المعربين لئلا يلزم عـلى الوجـه الاول
الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي وهو المبتدأ بخلاف الفاعل الذي
هو كالجزء من رافعه والحق ان هذا كله لا أساس له والوجه هو الاول •
(فاطر السموات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) فاطر صفة
لله أو بدل منه وجملة يدعوكم حالية أي حالة كونه يدعوكم الى الايمان
بإرساله إيانا واللام للتعليل ويغفر فعـل مضارع منصوب بأن مضمرة
بعد لام التعليـل والجار والمجرور متعلقان بيدعوكـم ومن ذنوبكم

متعلقان بيغفر وهي بمعنى التبعيض قال في الكشاف: « فإن قلت مامعنى التبعيض في قوله من ذنوبكم قلت : ما علمته جاء إلا هكذا في خطاب الكافرين » لئلا يسوي بينهم وبين المؤمنين وقال الرازي : « أما قول صاحب الكشاف المراد تمييز خطاب المؤمن من خطاب الكافر فهو من باب الطامات لأن هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة الى ذكر الجواب وإن لم يحصل كان هذا الكلام فاسداً » . وقال بعضهم هي للبدل أي بدل عقوبة ذنوبكم ويحتمل أن يضمن يغفر معنى يخلص أي يخلصكم من ذنوبكم واختار أبو عبيدة زيادتها تبعاً للأخفش الذي يجيز زيادتها في الموجب . (ويؤخركم إلى أجل مسمى) ويؤخركم عطف على يغفر والى أجل متعلقان بيؤخركم ومسمى نعت لأجل . (قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا) إن نافية وأنتم مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر ومثلنا صفة. (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) جملة تريدون صفة ثانية لبشر أو تكون مستأنفة وتريدون فعل وفاعل وأن وما في حيزها مفعول تريدون وعما متعلقان بتصدونا وجملة كان صلة وجملة يعبد خبر كان وآباؤنا فاعل يعبد. (فأتونا بسلطان مبين) الفاء الفصيحة وائتونا فعل أمر وفاعل ومفعول به وبسلطان متعلقان بأتونا ومبين صفة . (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) قالت لهم رسلهم فعل وفاعل ولهم متعلقان بقالت وإن نافية ونحن مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر ومثلكم صفة . (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) الواو حالية أو عاطفة ولكن واسمها وجملة يمن خبرها وعلى من متعلقان بيمن وجملة يشاء صلة ومن عباده حال . (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) الواو عاطفة وكان فعل ماض ناقص ولنا خبر كان المقدم وأن ومدخولها في تأويل مصدر اسم كان المؤخر وبسلطان متعلقان بنأتيكم وإلا أداة حصر وبإذن الله حال أي ملتبساً باذن الله . (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) الواو عاطفة

وعلى الله متعلقان بيتوكل والفاء عاطفة أيضاً واللام لام الأمر ويتوكل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والمؤمنون فاعل يتوكل . (وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) الواو عاطفة وما استفهامية والاستفهام هنا معناه النفي أي لا مانع لنا ولا عذر نتشبث بأهدابه ، وهو في محل رفع مبتدأ ولنا الخبر وان ومافي حيزها في موضع نصب على الحال أي الجار والمجرور فهو منصوب بنزع الخافض والواو للحال وقد حرف تحقيق وهدانا فعل وفاعل مستتر ومفعول به وسبلنا نصب بنزع الخافض والمعنى : والحال أنه قد هدانا وفعل بنا ما يوجب التوكل ويستدعيه حيث هدانا سبلنا أي ارشد كلامنا سبيله ومنهاجه . (ولنصبرن على ما آذيتمونا) الواو عاطفة واللام جواب قسم محذوف ونصبرن فعل مضارع مبني على الفتح ، وعلى ما : على حرف جر وما مصدرية وآذيتمونا فعل وفاعل ومفعول والواو للاشباع ويجوز أن تكون ما موصولة أي على الذي آذيتمونا به . (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) تقدم اعرابها وكرر الأمر بالتوكل لأن الأول لاستحداث التوكل والثاني لاثباته .

البلاغة :

رد الأيدي في الأفواه بقوله تعالى : « فردوا أيديهم في أفواههم » وعض الأنامل وحرق الارم كناية عن الغيظ والضجر عند حدوث مالا تهواه النفس وتريده . قال أبو عبيدة : هو ضرب مثل أي لم يؤمنوا ولم يجيبوا والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد ردّ يده في فيه وهكذا قال الأخفش واعترض ذلك القتيبي فقال لم يسمع أحد من العرب يقول رد يده في فيه إذا ترك ما أمر به . وقيل : المراد برد الأيدي في الافواه هنا الضحك والاستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه وقيل ان المراد بالايدي والافواه غير الجارحتين

فقيل المراد بالأيدي النعم ومعناه ردوا مالو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال : لفلان عندي يد" أي نعمة والمراد بالأفواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوا بأفواههم وردوا قولهم ، وهناك أقوال أخرى ضربنا عنها صفحاً لأن أقوى الوجوه هو الأول لأن اقناطهم الرسل من الايمان قولاً وفعلاً بوضع اليد في الفم هو المناسب لحسدهم في الكفر وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمير الخطاب واعادة ذلك مبالغة في التأكيد دل على قنوطهم بالمرة .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

اللغـــة :

(عاد) : لها معان كثيرة وهي هنا بمعنى صار فتلحق بها وتعمل عملها ويقال : عاد إليّ من فلان مكروه أي صار منه إلي ومن معانيها عاده يعوده عوداً : صرفه وعاد السائل : رده وعاد فلاناً بالمعروف صنعه معه ومن معانيهـا عاده عوداً : صيره عادة وكـذلك عاد يعود عَوْداً وعياداً وعيادة وعُوادةً المريض زاره فهو عائد • وفي القاموس : عاد يعود الشيء عوداً وعياداً بـدأه وباشره ثانياً ، قيـل ومنه المثـل : « العود أحمد » •

(استفتحوا) : استنصروا الله عـلى أعدائهم كقوله تعالى : « إن تستفتحوا فقد جاءكـم الفتح » وقيل استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهو الحكومة كقوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » وفي القاموس : والفتح كالفتاحة بضم الفاء وكسرها : الحكم بين الخصمين •

(صديد) : هو ما يسيل من جلود أهل النار •

(يتجرعه) : يتكلف جرعه أي ابتلاعه وفي الأساس : « جرعت الماء واجترعته بمرة وتجرعته شيئاً بعـد شيء وما سقاني إلا جُرعـة وجُرَيعـة وجُرَعاً وبتنا بالأجرع وبالجرعاء ونزلوا بالأجـارع وهي أرضون حزنة يعلوها رمل •

(يسيغه) : من أساغ الطعام أو الشراب سهل دخوله في الحلق •

الاعراب :

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا) قال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة ولرسلهم جار ومجرور متعلقان بقال واللام موطئة للقسم ونخرجنكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومن أرضنا متعلقان بنخرجنكم والجملة مقول القول . (أو لتعودن في ملتنا) أو حرف عطف بمعنى إلا وسيأتي مزيد بحث عن أو في باب الفوائد . ولتعودن عطف على نخرجنكم غير أن الفعل هنا معروب لعدم مباشرة نون التوكيد له وهو مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الامثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة وقد تقدم له نظائر وفي ملتنا متعلقان بتعودن أو خبرها . (فأوحى اليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين) الفاء عاطفة وأوحى اليهم ربهم فعل وفاعل ولنهلكن اللام جواب للقسم المحذوف ونهلكن الظالمين فعل مضارع مبني على الفتح وفاعل مستتر ومفعول به والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها مفسرة . . (ولنسكننكم الأرض من بعدهم) الواو عاطفة ونسكننكم فعل مضارع مبني على الفتح وفاعل ومفعول به والأرض نصب بنزع الخافض أو مفعول به على السعة وقد تقدم القول في دخل وسكن ونحوهما ومن بعدهم حال . (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) ذلك مبتدأ ولمن خبر وجملة خاف صلة وفاعله مستتر تقديره هو ومقامي مفعول به وهو مصدر مضاف للفاعل أي قيامي عليه بالحفظ أو اسم مكان قال الزجاج مكان وقوفه بين يدي للحساب ، وخاف فعل ماض أيضاً ووعيد مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل . (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) واستفتحوا فعل ماض والواو

فاعل والضمير يعود على الرسل أي واستنصروا الله على أعدائهم وقيل يعود على الكفار أي واستفتح الكفار على الرسل والأولى انه يعود على كلا الفريقين لأن كلاً من الجانبين يلتمس النصر على صاحبه فالواو استئنافية والجملة مستأنفة وخاب كل جبار فعل وفاعل وعنيد صفة لجبار ومعنى خاب هلك أو خسر ، والعنيد : المعاند للحق والمجانب له وهو مأخوذ من العند وهو الناحية أي أخذ في ناحيته معرضاً قال الشاعر :

إذا نزلت فاجعلوني وسطاً إني كبير لا أطيق العندا

وقال الزجاج : العنيد الذي يعدل عن القصد . (من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) من ورائه خبر مقدم وجهنم مبتدأ مؤخر ومعنى من ورائه : من بين يديه أي من أمامه وخلفه والجملة صفة ثانية لجبار ويسقى الواو عاطفة على مقدر جواباً عن سؤال سائل وكأنه قيل : فماذا يكون إذن ؟ قيل يلقى فيها ويسقى . ويسقى فعل مضارع مبني للمجهول ومن ماء متعلقان بيسقى وصديد بدل من ماء أو عطف بيان له كأنه قال ويسقى من ماء ثم أراد أن يبين ما أبهمه فأردف بقوله صديد لأن الصديد هو الماء ولكنه السائل من جلود أهل النار خاصة قال أبو حيان « وقال ابن عطية : هو نعت لماء كما تقول : هذا خاتم حديد وليس بماء ولكنه لما كان بدل الماء في العرف عندنا يعني أطلق عليه ماء وقيل هو نعت على اسقاط أداة التشبيه كما تقول : مررت برجل أسد التقدير مثل صديد فعلى قول ابن عطية هو نفس الصديد وليس بماء حقيقة وعلى هذا القول لا يكون صديداً ولكنه ما يشبه الصديد وقال الزمخشري : صديد عطف بيان لماء قال ويسقى من ماء فابهمه إبهاماً ثم بينه بقوله صديد » والبصريون لا يجيزون عطف البيان

في النكرات وأجازه الكوفيون وتبعهم الفارسي فأعرب زيتونة عطف بيان لشجرة مباركة » . وجملة يسقى معطوفة على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى من ماء شديد يتميز عن عذابها بما هو أشدّ وأبلغ في الإيلام . (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) الجملة صفة لماء ويتجرعه فعل وفاعل مستتر ومفعول به ولا بأس بجعل الجملة مستأنفة مسوقة للرد على سؤال كأنه قيل فماذا يفعل به ؟ فقيل يتجرعه أي يتكلف جرعه مرة بعد مرة إطفاء لسورة العطش وحرارة الغليل ، ولا الواو عاطفة ولا نافية ويكاد من أفعال المقاربة واسمها مستتر تقديره هو وجملة يسيغه خبر وسيأتي المزيد من بحث هذا التركيب العجيب في باب البلاغة . (ويأتيه الموت من كل مكان) الواو عاطفة ويأتيه الموت فعل وفاعل مؤخر ومفعول مقدم أي أسباب الموت كأنها تظاهرت عليه فهي تأتيه من كل مكان والجار والمجرور في موضع نصب على الحال أي تأتيه محيطة به من جميع جهاته . (وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) الواو للحال وما نافية حجازية وهو اسمها والباء حرف جر زائد وميت مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ما ومن ورائه خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وغليظ صفة لعذاب . (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) مثل الذين مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره وفيما يقص عليكم مثل وقد تقدمت نظائره وجملة كفروا بربهم صلة وأعمالهم مبتدأ والكاف بمعنى مثل خبر أو هي حرف مع مجرورها في محل رفع خبر والجملة مستأنفة للاجابة على سؤال مقدر نشأ عن تقدير المثل كأنه قال وما ذلك المثل فقيل أعمالهم كرماد ويجوز أن يكون مثل مبتدأ وأعمالهم مبتدأ ثانياً وكرماد خبر الثاني والثاني وخبره خبر الأول وقد رد أبو حيان هذا الوجه بقوله « وهو لا يجوز لأن الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ الذي هو

مثل عارية من رابط يعود على المثل وليست نفس المبتدأ في المعنى فلا تحتاج الى رابط » ، ويجوز ـ وهو وجه جميل ـ أن يكون مثل مبتدأ وأعمالهم بدل اشتمال منه وكرماد خبر مثل وأعمالهم معاً وجملة اشتدت به الريح صفة لرماد وفي يوم عاصف حال من الريح • (لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) الجملة حالية من فاعل كفروا ويقدرون فعل وفاعل ومما كسبوا حال لأنه كان في الأصل صفة لشيء وقد تقدم عليه وعلى شيء متعلقان بيقدرون وجملة كسبوا صلة وذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والضلال خبر الثاني والثاني وخبره خبر الاول والبعيد صفة •

البلاغـة :

في هذه الآيات أفانين متعددة من البلاغة نوردها فيما يلي :

١ ـ في ألفاظ الآيات الواردة مورد التهـديد والوعيد مراعاة النظير وقد تقدم بحثه فجميع ألفاظها متضافرة على التعبير عن المخيف القارع للقلوب •

٢ ـ في قوله تعالى : (يتجرعه ولا يكاد يسيغه) فنون عديدة فيما يلي أهمها :

آ ـ الاستقصاء وهو أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه أي يأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية بحيث لايترك لمن يتناوله بعـده فيه مقالاً يقـوله فقد استقصى المعنى الذي أراده في الآية وهو كراهية الصديد الـذي يشربه بأنه يتجرعه وفيـه احتمالات أولها انه مطاوع جرعته بالتشديد نحو علمته فتعلم وثانيهاانه

للتكلف وقد اخترناه في الاعراب أي يتكلف جرعه ولم يذكر الزمخشري غيره وثالثها انه دال على المهلة نحو تفهمته أي يتناوله شيئاً فشيئاً بالجرع كما يتفهم شيئاً فشيئاً بالتفهيم ورابعها انه بمعنى جرعه المجرد وفي جميع هذه الاحوال استقصى غاية ما يمكن أن يتناوله شارب الماء .

ب ـ المبالغة في قوله « ولا يكاد » فدخول فعل يكاد للمبالغة ، يعني : ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة ؟ كقوله « لم يكد يراها » أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها .

جـ ـ ذكر الموت وأراد أسبابه وهذا مجاز .

د ـ وصف العذاب بالغلظة كناية عن قوته واتصاله لأن الغلظة تستوجب القوة وتستدعي أن يكون متصلاً تتصل به الأزمنة كلها فلا انفصال بينها .

هـ ـ الغلو : بذكر كاد وهذا يطرد في كل كلام تستعمل فيه أداة المقاربة كقول الفرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

وقد أغرط أبو العلاء في استعمالها قال :

تكاد قسيه من غير رام ... تمكن في سيوفهم النبالا
تكاد سوابق" حمَلته تغني ... تجد الى رقابهم انسلالا
تكاد سوابق حملته تغني ... عن الأقدار صوناً وابتذالا
سرى برق المعرة بعد وهن ... فبات براحة يصف الكلالا
شجا ركباً وأفراساً وإبلاً ... وزاد فكاد أن يشجو الرحالا

ولابن خفاجة الاندلسي ، وكاد هنا مرقصة :

وأهيف قـــام يسعى والسكر يعطف قـــده

وقـــد ترنـــح غصناً وحسر الكـــأس ورده

وألهب السكر خـــداً أورى به الوجـــد زنده

فكـــاد يشرب نفسي وكـدت أشرب خـدّه

وكل هذا من الغلو المقبول لأنه مقترن بالأداة ويزداد حسنه إذا تضمن نوعاً حسناً من التخييل كقول المتنبي :

عقدت سنابكها عليه عثيراً لو تبتغي عنقاً عليـه أمكنا

ولأبي العلاء في صفة السيف :

يذيب الرعب منه كـل عضب فلولا الغمـد يمسكه لسالا

وقال في وصف الخيل :

ولما لـم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

أما الغلو غير المقبول فهو نوعان نوع يستسيغه الفن كقول المتنبي:

ولـــو قلم القيـت في شقّ رأسه

من السقم ما غـيرت من خط كاتب

وقول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

و ــ التتميم : وقد تحدثنا عنــه أيضا ونبينه هنا فنقول التتميم أنواع ثلاثــة تتميم النقص وتتميم الاحتياط وتتميم المبالغــة فقد قال يتجرعه ولو قال جرعه لما أفاد المعنى الذي أراده لأن جرع الماء لايشير الى معنى الكراهية ولكنه عندما أتي بالتاء عــلى صيغة التفعل أفهم أنه يتكلف شربه تكلفاً وانه يعاني من جراء شربه مالا يأتي الوصف عليه من تقزز وكراهية ثم احتاط للأمر لأنه قــد يوهم بأنه تكلف شربه ثم هان عليه الأمر بعــد ذلك فأتي بالكيدودة أي أنه تكلف شربه وهو لا يكاد يشربه ولو اكتفى بالكيدودة لصح المعنى دون مبالغــة ولكن عنــدما جاءت يسيغه افهم انه لا يسيغه بل يغص به فيشربه بعــد اللتيا والتي جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة وتارة بالعطش •

٣ ــ التشبيه التمثيلي بقولــه « والذين كفروا أعمالهــم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » فالمشبه مركب وهو الــذين كفروا وأعمالهم الصالحة التي يقومون بها في حياتهم كصلة يرفدون بها المحتاج وصدقة يجبرون بها المكسور وعلم يعم نفعــه العباد والمشبه به الرماد وهو ما سحقته النار من الاجرام واشتداد الريح واليوم العاصف ووجه الشبه ان الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى له أثر فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لا يبقى لها أثر •

٤ ــ المجاز العقلي في اسناد العصف لليوم كقولهم نهاره صائم وليله قائم شبهت صنائعهــم الحميدة ومكارمهــم المجيــدة وما كانوا ينتدبون له من إغاثة الملهــوف وعتق الرقــاب وفك العاني وافتــداء الاسارى وعقر الابل للأضياف وغــير ذلك شبهت هــذه الصنائع في

حبوطها وذهابها هباء منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والايمان به برماد طيرته الريح في اليوم الذي أسند اليه العصف •

٥ ــ وصف الضلال بالبعد تقدم القول فيه قريباً فجدد به عهداً •

الفوائد :

« أو » حرف عطف وله معان نوردها فيما يلي :

آ ــ الشك نحو « لبثنا يوماً أو بعض يوم » •

ب ــ الابهام نحو « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » والشاهد في أو الأولى •

جـ ــ الإباحة وهي الواقعة قبل ما يجوز فيه الجمع نحو : جالس العلماء أو الزهاد •

د ــ التخيير وهي الواقعة قبل ما يمتنع فيه الجمع نحو : تزوج هنداً أو أختها وسر ماشياً أو راكباً •

هـ ــ مطلق الجمع كالواو كقوله :

وقد زعمت ليلى بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقد أنكرها بعضهم هنا وقال هي للابهام أي انها تعلم اتصافها بالأمرين وقصدت الابهام على السامع وهذا مردود لأن كون التقى للنفس والفجور عليها أمران مجتمعان في الواقع كما قال تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ومن ورودها لمطلق الجمع قول جرير :

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

وقول النابغة المشهور في معلقته :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقـــد

وعلى هذا المعنى حمل بعض العلماء أو في قوله تعالى « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » وفيهـا أقوال أخرى سترد في مكانهـا إن شاء الله •

و ـ الإضراب كـ « بل » واشترط سيبويه لاجازة ذلك شرطين تقدم نفي أو نهي وإعادة العامل نحو ما قام زيداً وما قام عمرو واستشهد بقوله تعالى : « ولا تطع منهما آثماً أو كفوراً » ولم يشترط غير سيبويه هذين الشرطين واستشهدوا بقول جرير :

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيــة لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

وقيـل هي المقصودة بقوله تعـالى « وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون » فقـال الفراء الاخبار الاول بحسب ما يظهر للناس ليندفع الاعتراض بأنـه كيف يجوز الأضراب مع كونـه عالماً بعددهم وأنهم يزيدون فهو إخبار منه تعالى بناء على ما يحزر الناس من غير تحقيق ثم أخذ في التحقيق مضرباً عما يغلط فيه الناس بناء على ظاهر الحزر وسيأتي المزيد من هذا البحث القيم عند الكلام على هذه الآية •

ز ـ التقسيم نحو : الكمة اسم أو فعل أو حرف وسماه بعضهم التفريق نحو قولـه تعالى : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى » وهو أولى من التعبير بالتقسيم لأن استعمال الواو في التقسيم أجود •

ح ـ أن تكون بمعنى إلا في الاستثناء وهـذه ينتصب المضارع بعدها بإضمار أن كقول زياد الأعجم :

وكنت إذا غمزت قنـاة قوم كسرت كعوبهـا أو تستقيما

وهذه الآية منها ولكن امتنع النصب لدخول اللام الدالة عـلى الحال فيمتنع تقدير ان الدالة على الاستقبال لئلا تحصل المنافاة .

ط ـ أن تكون بمعنى الى وهي كالتي قبلها في انتصاب المضارع بعدها بأن مضمرة كقوله :

لأستسهلنّ الصعب أو أدرك المنى

فما انقادت الآمـال إلا لصابر

ي ـ أن تكون للتقريب نحو ماأدري أسلّم أو ودع قال الحريري في درة الغواص : « انهم لا يفرقون بين قولهم : لا أدري أينا أقام أو أذن وقولهم أدري أقام أم أذن والفرق بينهما انك إذا نطقت بأم كنت شاكاً فيما أتى به من الإقامة والأذان وإذا أتيت بأو فقد حققت أنه أتى بالأمرين إلا انه لسرعـة وقرب ما بينهمـا صار بمنزلة من لم يقـم ولم يؤذن » .

ك ـ الشرطية نحو : لأضربنه عاش أو مات أي إن عاش بعـد الضرب وإن مات .

ل ـ التبعيض ذكره بعضهم واستشهد بقوله تعـالى : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى » وهذا محض تكلف .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)

اللغـــة :

(محيص) : منجى ومهرب والمحيص يجـوز أن يكون مصدراً كالمغيب والمشيب ومكاناً كالمبيت والمصيف وفي المختار حاص عنه عدل وحاد وبابه باع وحيوصاً ومحيصاً ومحاصاً وحيصاناً بفتح الياء، يقال ماعنه محيص أي محيد ومهرب والانحياص مثله • ومن أقوالهم : وقع في حيص بيص أي في اختلاط لا مخرج منـه وفتنة تموج بأهلهـا وهما

اسمان ركبا اسماً واحداً وبنيا بناء خمسة عشر والـذي أوجب بناءهما تقدير الواو فيهما فالحيص التأخر والهرب والبوص مأخوذ من قولهم باص يبوص أي فات وسبق لأنه إذا وقع الاختلاط والفتنة فمنهم فائت ومنهم هارب وكان القياس يقتضي أن يقال حيص بوص إلا أنهم أتبعوا الثاني الاول وفيها لغات كثيرة أشهرها حيص بيص بفتح الحاء والباء وفتح آخرهما عـلى البناء كما تقـدم ، أنشد الأصمعي لأمية بن عائذ الهذلي :

قد كنت خراجاً ولوجاً صرِفاً   لم تلتحصني حيص بيص لحاص

وقالوا : حيص بيص بكسر أولهما وفتح آخرهما وبعضهم يبنيهما عـلى الكسر كما تكسر الأصوات نحو غاق غاق وهناك لغات أخرى أضربنا عن ذكرها .

(بمصرخكم) : بمغيثكم وفي المصباح : « صرخ يصرخ من باب قتل صُراخاً فهو صارخ وصريخ إذا صاح وصرخ فهو صارخ إذا استغاث واستصرختـه فأصرخني استغثت به فأغاثني فهو صـريخ أي مغيث ومصرخ على القياس » وهو المغيث والمستغيث فهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح . قال ابن الاعرابي المستغيث والمصرخ المغيث .

الاعراب :

(ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر ، والسموات مفعول خلق وقيل مفعول مطلق وسترى بحثاً شيقاً في باب الفوائد وبالحق متعلقان بخلق

أو بمحذوف حال فالباء للسببية على الأول وللمصاحبة على الثاني • (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) إن شرطية ويشأ فعل الشرط ويذهبكم جواب الشرط والكاف مفعول به ويأت عطف على يذهبكم وبخلق متعلقان بيأت وجديد صفة (وما ذلك على الله بعزيز) الواو عاطفة أو حالية وما نافية حجازية وذلك اسمها وعلى الله جار ومجرور متعلقان بعزيز والباء حرف جر زائد وعزيز مجرور لفظاً منصوب محلاً على انه خبر ما • (وبرزوا لله جميعاً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة لتقرير بعثهم من القبور وعبر عنه بصيغة الماضي وان كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق كائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل في حيز الوجود وبرزوا فعل وفاعل ولله متعلقان ببرزوا وجميعاً حال• (فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً) الفاء عاطفة وقال الضعفاء فعل وفاعل وللذين متعلقان بقال وجملة استكبروا صلة وجملة إنا مقول القول وان واسمها وجملة كنا خبرها وكان واسمها ولكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة له ثم تقدمت وتبعاً خبر كنا وهو جمع تابع كقولهم خادم وخدم • (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) الفاء عاطفة وهل حرف استفهام وأنتم مبتدأ ومغنون خبر وعنا متعلقان بمغنون ومن عذاب الله حال ومن الثانية زائدة وشيء مفعول به محلاً مجرور بمن لفظاً وهذا أولى الاعاريب الكثيرة • (قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) قالوا فعل وفاعل ولو حرف امتناع وهدانا الله : فعل ومفعول به وفاعل ، لهديناكم : اللام واقعة في جواب الشرط وهديناكم: فعل وفاعل ومفعول به ، سواء خبر مقدم وأجزعنا مبتدأ مؤخر لأنه في تأويل مصدر لأن الهمزة للتسوية والفعل بعدها يؤول بمصدر وأم حرف عطف متصلة وصبرنا عطف على جزعنا • (مالنا من محيص) ما

نافية حجازية ولنا خبر مقدم ومن حرف جز زائد ومحيص مجرور لفظاً اسم ما محلاً • (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق) الواو عاطفة وقال الشيطان فعل وفاعل ولما ظرفية حينية أو رابطة وقضي الأمر فعل ونائب فاعل والجملة مضافة للما أو لا محل لها وإن واسمها وجملة وعدكم خبرها ووعد مفعول مطلق والحق مضاف اليه وجملة إن الله مقول القول وهو من كلام ابليس قاله رداً على أهل النار الذين أخذوا يلومونه ويقرعونه • (ووعدتكم فأخلفتكم) لا بد من تقدير محذوف أي فصدقكم ، ووعدتكم عطف على وعدكم ، فأخلفتكم عطف على وعدتكم وهو فعل وفاعل ومفعول به • (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) الواو عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولي خبرها المقدم وعليكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لسلطان ومن حرف جر وسلطان مجرور لفظاً واسم كان محلاً وإلا أداة استثناء وأن وما في حيزها مستثنى لأن الاستثناء المنقطع يجب نصبه ولو كان الكلام غير موجب ولأن الدعاء ليس من جنس السلطان فاستجبتم عطف على دعوتكم ولي متعلقان باستجبتم • (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) الفاء الفصيحة كأنه قيل إن علمتم انكم أسرعتم في اجابتي فأنتم الملومون ولا ناهية وتلوموني مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به ولوموا فعل أمر وفاعل وأنفسكم مفعول به • (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) ما نافية حجازية وأنا اسمها وبمصرخكم الباء حرف جر زائد ومصرخكم خبر ما محلاً وما أنتم بمصرخي عطف على مثيلتها وأصل بمصرخي بمصرخين لي جمع مصرخ فياء الجمع ساكنة وياء الاضافة ساكنة كذلك فحذفت اللام للتخفيف والنون للاضافة فالتقى ساكنان وهما الياءان فأدغمت ياء الجمع في ياء الاضافة ثم حركت ياء الاضافة

بالفتح طلباً للخفة وتخلصاً من توالي ثلاث كسرات • (إني كفرت بما أشركتموني من قبل) إن واسمها وجملة كفرت خبرها والباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع اشركتموني بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بكفرت أي كفرت باشراككم إياي ويجوز أن تكون موصولة والأول أولى كما قررنا والياء مفعول أشركتموني ومن قبل متعلقان بأشركتموني وسيأتي في باب البلاغة معنى اشراكهم اياه مع الله تعالى • (إن الظالمين لهم عذاب أليم) ان واسمها ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم صفة والجملة الاسمية خبر ان •

البلاغـة :

في قوله تعالى : « إني كفرت بما أشركتموني » استعارة تصريحية شبه الطاعة بالاشراك ونزلها منزلته لأنهم كانوا يطيعونه في أعمال الشر كما يطاع الله في أعمال الخير أو لأنهم لما أشركوا الأصنام ونحوها باتباعهم له في ذلك فكأنهم أشركوه لأنه هو الذي كان يزين لهم عبادة الأوثان ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية التبعية •

وبوضوح هذه الاستعارة يتضح أن الشيطان قام لهم في هذا اليوممقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم فقد أوضح لهم :

أولاً ــ ان مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة ومعارضة لوعد الحق من الله سبحانه •

ثانياً ــ انه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها •

ثالثاً ـ أوضح لهم أنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قبول غيره .

رابعاً ـ أوضح لهم انه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية من أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء .

خامساً ـ ثم نعى عليهم ما وقعوا فيه ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لايلتبس بطلانه على من له أدنى مسكة من عقل .

سادساً ـ أوضح لهم انه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعاًولا يدفع عنهم ضراً بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص من هذه المحنة .

سابعاً : ثم صرح لهم بأنه قد كفر بما اعتقدوه وأثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جملة « ان الظالمين لهم عذاب أليم » من تتمة كلامه كما ذهب اليه بعض المفسرين فهو نوع ثامن من كلامه الذي خاطبهم به .

الفوائد :

إعراب خلق الله السموات :

هذا بحث شيق وإن يكن لا حقيقة له فقد اعترض عبد القاهر الجرجاني على إعراب خلق الله السموات والعالم ونحوهما إذ قال : « العالم هنا مصدر لا مفعول به لأن المفعول به هو الذي كان موجوداً

أو أثر فيه الفاعل شيئاً آخر بفعله والمصدر هو الذي لم يكن موجوداً بل كان عدماً محضاً والفاعل موجده ومخرجه من العدم الى الوجود بفعله والعالم في قولنا خلق الله العالم كذلك فكان مصدراً » واعترض عليه بأنه لو كان مصدراً لكان نفس الخلق ولا يجوز أن يكون ذلك لوجهين أحدهما انا نعلم العالم مع الشك في كونه مخلوقاً لله تعالى الى أن نعلم ذلك بدليل منفصل فالعالم على هذا معلوم وكونه مخلوقاً له تعالى غير معلوم لتوقفه على الدليل والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم فكان الخلق غير العالم والوجه الثاني ان الله تعالى يوصف بالخلق فلو كان الخلق العالم لكان الله موصوفاً بالعالم وهو لا يجوز لأنه يلزم من ذلك وصف القديم بالحادث أو قدم العالم وهذه حذلقة لا طائل تحتها والحق ان الذي أورده عبد القاهر الجرجاني طائح من أساسه لأن الكلام إنما هو في اصطلاح النحاة وهذا المصطلح إنما هو فيما يعرض لأواخر الكلم من الرفع والنصب والجر لاتصاف الكلمة بالفاعلية تارة وبالمفعولية تارة وبالإضافة تارة أخرى الى غير ذلك فإذا قلنا خلق الله السموات والأرض قلنا : هذه الكلمات المركبة المسموعة نسميها في اصطلاحنا فعلاً وفاعلاً ومفعولاً به فرفعنا اسم الله تعالى على أنه فاعل ونصبنا السموات والأرض على المفعولية لوقوع فعل الفاعل عليها ولا يلزمنا من هذه العبارة التي أوقعناها على هذه الألفاظ أن يكون المعنى في الأصل قد وقع وتجدّد لأن الألفاظ أدلة على المعاني والدليل غير المدلول ولأن الاسم غير المسمى وإلا لزم احتراق فم من تلفّظ بالنار ولزم إذا قلنا أعدم الله العالم وأقام القيامة وأمات زيداً أن يكون هذا كله قد وقع الآن وتجدّد ونحن نجد هذا باطلاً .

ونعتقد أن الامام عبد القاهر كان يعتقد بطلان ما أورده وإنما أورده مغالطة وإظهاراً لصناعة البحث ليس غير .

ناصب المفعول به :

وهنا لا بد من إيراد بحث دقيق وهو : ما هو ناصب المفعول به ؟ مذهب سيبويه أنه الفعل ولذلك تعددت المفاعيل بحسب اقتضاء الفعل لأن الفعل إن اقتضى مفعولاً نصبه أو اثنين نصبهما أو ثلاثة نصبها ، وقال ابن هشام : إنه الفاعل لأنه الذي أثر فيه في المعنى فيؤثر فيه في اللفظ .

أقول : وهذا ليس بشيء لأن الفاعل يضمر والمضمر لا يعمل في المظهر ولأنهم قسموا الفعل الى لازم ومتعد فدل على أن العمل له . أما الفراء فاختار أن يكون الفعل والفاعل هما اللذين نصبا المفعول قياساً على الابتداء والخبر ، وهو خلاف لا طائل تحته وانما أوردنا هذه المباحث النظرية لأنها مصقلة للذهن ، ورياضة له ، ويرد على الجميع قوله تعالى : « أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ... » إذ لا فاعل ولا فعل هنا والكلام في هذا لا يتسع له هذا المقام .

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن

فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

الاعراب :

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها **الأنهار خالدين فيها) بعد أن شرح أحوال الكفار الأشقياء شرع** في شرح أحوال المؤمنين السعداء . وأدخل فعل ماض مبني للمجهول والذين نائب فاعل وجملة آمنوا صلة وعملوا عطف على آمنوا وهي فعل وفاعل والصالحات مفعول به وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات . (بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) بإذن جار ومجرور متعلقان بأدخل وربهم مضاف لإذن وتحيتهم مبتدأ وفيها حال وسلام خبر تحيتهم . (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره أنت وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال وضرب الله مثلاً فعل وفاعل ومفعول به والحال من المفعول به . (كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) كلمة بدل من مثلاً أو منصوبة بفعل محذوف أي جعل كلمة طيبة أو بتضمين ضرب معنى جعل فيكون مفعولاً به ثانياً وكشجرة خبر لمبتدأ محذوف بمعنى هي كشجرة طيبة وطيبة صفة لشجرة وأصلها مبتدأ وثابت خبر والجملة صفة ثانية لشجرة وفرعها في السماء عطف على

أصلها ثابت ويجوز أن يكون قوله كشجرة صفة ثانية لكلمة طيبة • (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) الجملة صفة ثالثة لشجرة وتؤتي فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره هي وأكلها مفعول به وكلّ حين ظرف متعلق بتؤتي وسيأتي حديث عن الشجرة الطيبة وبإذن ربها متعلقان بتؤتي أو بمحذوف حال أي ملتبسة بإذن ربها • (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) ويضرب الله الأمثال فعل مضارع وفاعل ومفعول به وللناس متعلقان بيضرب ولعل واسمها وجملة يتذكرون خبرها • (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار) ومثل مبتدأ وكلمة مضاف اليه وخبيثة صفة وكشجرة خبر مثل وخبيثة صفة وجملة اجتثت من فوق الارض صفة ثانية لشجرة وجملة مالها من قرار صفة ثالثة لشجرة وما نافية حجازية أو تميمية ولها خبر مقدم ومن زائدة وقرار مبتدأ مؤخر أو اسم ما مؤخر • (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير حالة كل من المرادين بالمثلين المتقدمين ويثبت فعل مضارع والله فاعل والذين مفعول به وجملة آمنوا صلة وبالقول متعلقان بيثبت والثابت نعت للقول وفي الحياة الدنيا حال • (ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ويضل الله الظالمين فعل وفاعل ومفعول به ويفعل الله ما يشاء فعل وفاعل ومفعول به وجملة يشاء صلة •

البلاغة :

١ ـ التشبيه التمثيلي في تشبيه الكلمة الطيبة الموصوفة بثلاث صفات وهي ايتاء الاكل كل حين أي من وقت أن تؤكل الى حين انصرامها قال الربيع بن أنس هي النخلة لأن ثمرها يؤكل أبداً ليلاً

ونهاراً وصيفاً وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبياً فوقع في قلبي أنها النخلة فهبت رسول الله أن أقولها وأنا أصغر القوم وروي فمنعني منها مكان عمر واستحييت فقال لي عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إليّ من حمر النعم • ووجه الشبه في تمثيل الايمان بالشجرة أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان فوجود الصفات الثلاث في جانب المشبه به حسية بينما هي في جانب المشبه معنوية •

٢ ـ التشبيه التمثيلي أيضاً في تشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة غير الثابتة كأنها اجتثت أو كأنها ملقاة على وجه الأرض فلا تغوص الى الارض بل عروقها في وجه الأرض ولا غصون لها تمتد صعداً الى السماء وهذا معنى قوله ما لها من قرار •

٣ ـ المجاز العقلي في قوله « تؤتي أكلها » ففعل الايتاء مسند الى غير فاعله الحقيقي لأن النخلة لا تؤتي الأكل على حد قول الصلتان العبدي •

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومرّ العشي

فالمجاز وقع في اثبات الشيب فعلاً لكر الغداة ومر العشي وهو في الحقيقة فعل الله تعالى •

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

اللغـــة :

(البوار) : الهلاك وفي المصباح : « بار الشيء يبور بوراً بالضم هلك وبار الشيء بواراً كسد على الاستعارة لأنه إذا ترك صار غير منتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه »وفي القاموس والتاج :«البور بفتح الباء: الأرض قبل أن تصلح للزرع أو التي تجم سنة لتزرع من قابل ، والاختبار كالابتيار والهلاك ، وأباره الله ، وكساد السوق كالبوار فيهما

وجمع بائر وبالضم الرجل الفاسد والهالك لا خير فيه يستوي فيه الاثنان والجمع والمؤنث، وما بار من الأرض فلم يعمّر كالبائر والبائرة» وفي الأساس : « فلان له نوره وعليك بثوره أي هلاكه وقوم بُور وأحلوا دار البوار ونزلت بوار على الكفار قال أبو مكعت الأسدي :

قُتلت فكان تظالماً وتباغياً إن التظالم في الصديق بوار

لو كان أولَ ماأتيتَ تهارشت أولاد عَرْجَ عليك عند وِجار

جعلها علماً للضباع فاجتمع التعريف والتأنيث ومن المجاز : بارت البياعات كسدت وسوق بائرة وبارت الأيم إذا لم يرغب فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من بوار الأيم وبارت الأرض إذا لم تزرع وأرض بَوار وأرضون بور » .

(يصلونها) : يدخلونها وفي المصباح صلي بالنار وصليها صلياً من باب تعب وجد حرّها والصلاء وزان كتاب حرّ النار وصليت اللحم أصليه من باب رمى إذا شويته » .

(خلال) مخالّة أي صداقة كذا فسرها الزمخشري والجلال وغيرهما وهو يقتضي أنها مفرد وفي القرطبي : انه جمع خلة بالضم مثله قلة وقلال وفي الأساس ما يؤيد انه مفرد قال : « هو خليلي وخِلّي وخُلتي وهم أخلائي وخِلاّني وبيننا خلة قديمة ، وخاللته مُخالّة وخلالا » وما يؤيد أنه جمع قال : « وهذه خلة صالحة وفيه خلال حسنة » .

الاعراب :

(ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار)

الهمزة للاستفهام التعجبي أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء الكفرة الذي لا يصدر عمن له أدنى إدراك . ولم حرف نفي وقلب وجزم والى الذين متعلقان بتر وجملة بدلوا صلة ونعمة الله مفعول به ثان لأنه هو الذي يدخل عليه حرف الجر أي بنعمة الله وكفراً هو المفعول الأول قال أبو حيان : « وزعم الحوفي وأبو البقاء ان كفراً هو مفعول ثان لبدلوا وليس بصحيح لأن « بدّل » من أخوات « اختار » فالذي يباشره حرف الجر هو المفعول الثاني والذي يصل اليه الفعل بنفسه لا بواسطة حرف الجر هو المفعول الاول » وأحلوا عطف على بدلوا وقومهم مفعول به أول ودار البوار مفعول به ثان . (جهنم يصلونها وبئس القرار) جهنم بدل أو عطف بيان من دار البوار أو بنصبه بفعل محذوف يفسره ما بعده أي يصلون جهنم وجملة يصلونها حالية على الأول وتفسيرية على الثانية والواو حالية وبئس القرار فعل وفاعل والمخصوص بالذم محذوف أي هي . (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله) الواو عاطفة وجعلوا فعل وفاعل ولله في محل نصب مفعول به ثان لجعلوا وأنداداً مفعول به أول ولك أن تعلق لله بمحذوف حال وليضلوا قيل اللام للعاقبة أو الصيرورة وقيل هي على بابها من التعليل ولكن ليس ذلك غرضاً حقيقياً لهم من اتخاذ الأنداد ولكن لما كان ذلك نتيجة له شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية ويضلوا منصوب بأن مضمرة بعد لام العاقبة أو لام التعليل والواو فاعل وعن سبيله متعلقان بيضلوا . (قل تمتعوا فإن مصيركم الى النار) قل فعل أمر وجملة تمتعوا مقول القول وتمتعوا فعل أمر وفاعله ، فإن : الفاء للتعليل وان واسمها والى النار خبرها . (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة) اتفق أكثر المعربين على أن مقول القول محذوف يدل عليه جوابه أي قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا وسيرد على هذا القول

ما اعترض به بعضهم وذلك في باب البلاغة والذين صفة لعبادي وجملة آمنوا صلة ويقيموا مجزوم في جواب الأمر أي إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا الخ يقيموا الصلاة وينفقوا وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى ليقيموا ولينفقوا فهما مجزومان بلام الامر ويكون هذا هو المقول وسيرد في باب البلاغة بحث طريف بهذا الصدد والصلاة منعول به •

وعبارة ابن هشام في المغني : « والجمهور على أن الجزم في الآية ــ أي قل لعبادي ــ مثله في قولك ائتني أكرمك وقد اختلف في ذلك على ثلاثة أقوال :

١ ــ أحدها للخليل وسيبويه انه بنفس الطلب لما تضمنه من معنى ان الشرطية كما أن أسماء الشرط انما جزمت لذلك •

٢ ــ والثاني للسيرافي والفارسي انه بالطلب لنيابته مناب الجازم الذي هو الشرط المقدر كما أن النصب بضرباً في قولك ضرباً زيداً لنيابته عن أضرب لا لتضمنه معناه •

٣ ــ والثالث للجمهور انه بشرط مقدر بعد الطلب وهذا أرجح من الأول لأن الحذف والتضمين وان اشتركا في أنهما خلاف الأصل لكن في التضمين تغيير معنى الأصل ولا كذلك الحذف وأيضاً فإن تضمين الفعل معنى الحرف إما غير واقع أو غير كثير ومن الثاني لأن نائب الشيء يؤدي معناه والطلب لا يؤدي معنى الشرط ، وأبطل ابن مالك بالآية أن يكون الجزم في جواب شرط مقدر لأن تقديره يستلزم أن لا يتخلف أحد من المقول له ذلك عن الامتثال لكن التخلف واقع وأجاب ابنه بأن الحكم مسند اليهم على سبيل الاجمال لا إلى كل فرد فيحتمل

أن الاصل يقيم أكثرهم ثم حذف المضاف وأنيب عنه المضاف اليه فارتفع واتصل بالفعل وباحتمال انه ليس المراد بالعباد الموصوفين بالإيمان مطلقاً بل المخلصين منهم وكل مؤمن مخلص قال له الرسول أقم الصلاة أقامها ، وقال المبرد : التقدير قل لهم أقيموا يقيموا والجزم في جواب أقيموا المقدر لا في جواب قل ويرده أن الجواب لا بد أن يخالف المجاب إما في الفعل والفاعل نحو ائتني أكرمك أو في الفعل نحو أسلم تدخل الجنة أو في الفاعل نحو قم أقم ولا يجوز أن يتوافقا فيهما وأيضاً فإن الأمر المقدر للمواجهة ويقيموا للغيبة وقيل يقيموا مبني لحلوله محل أقيموا وهو مبني وليس بشيء وزعم الكوفيون وأبو الحسن أن لام الطلب حذفت حذفاً مستمراً في نحو قم واقعد وان الأصل لتقم ولتقعد فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة وبقولهم أقول لأن الأمر معنى فحقه أن يؤدى بالحرف ولأنه أخو النهي ولم يدل عليه إلا بالحرف ولأن الفعل إنما وضع لتقييد الحدث بالزمان المحصل وكونه أمراً أو خبراً خارج عن مقصوده ولأنهم قد نطقوا بذلك الأصل كقوله « لتقم أنت يا ابن خير قريش » •

(وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) وينفقوا عطف على يقيموا ومما رزقناهم متعلقان بينفقوا وسراً وعلانية منصوبان على الحال أي ذوي سر وذوي علانية بمعنى مسرين ومعلنين أو على المصدر أي انفاق سر وعلانية أو على الظرفية أي وقتي سر وعلانية أو بنزع الخافض أي في سر وعلانية • (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال) من قبل متعلقان بينفقوا وان وما في حيزها مصدر مضاف لقبل ويوم فاعل يأتي ولا نافية للجنس أهملت لتكرارها كما في لا حول ولا قوة وقد تقدمت الأوجه فيها وبيع مبتدأ وفيه خبر ولا خلال عطف على لا بيع • (الله

الذي خلق السموات والارض) الله مبتدأ والـذي خبره وخلق صلة والسموات والارض مفعوله • (وأنزل من السماء مـاء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم)وأنزل عطف على خلق والفاعل مستتر هو الله ومن السماء متعلقان بأنزل وماء مفعول به فأخرج عطف على أنزل وبه جار ومجرور متعلقان بأخرج ومن الثمرات حـال لأنه تقدم على موصوفه وهو رزقاً ، ورزقاً مفعول به ولكم صفة لرزقاً • (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) وسخر لكم الفلك عطف على ما تقدم ولتجري اللام للتعليل وتجري منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفي البحر متعلقان بتجري وبأمره حال • (وسخر لكـم الأنهـار) عطف عـلى ما تقدم• (وسخر لكم الشمس والقمر د ائبين وسخر لكم الليل والنهار) عطف أيضاً ودائبين حال من الشمس والقمر فلما اتفقا لفظاً ومعنى ثنيا ولا يضر اختلافهما في التذكير والتأنيث • (وآتاكم من كل ما سألتموه) وآتاكم عطف أيضاً وهو فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومن كل متعلقان بآتاكـم وما موصول مضاف لكـل وسألتموه صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية • (وان تعـدوا نعمة الله لا تحصوها) الواو عاطفة وان شرطية وتعدوا فعل الشرط والواو فاعل ونعمة الله مفعول تعدوا ولا نافية وتحصوها جواب ان • (إن الانسان لظلوم كفار) جملة مستأنفة مسوقة للتأكيد على جحود الانسان الظالم لآلاء الله ونعمه متغافل عن شكرها وان واسمها واللام المزحلقة وظلوم خبر ان الأول وكفار خبر إن الثاني •

البلاغـة :

في هذه الآيات من التهديد والوعيد والارعاد والابراق ما فيها ، وسنورد خصائصها بصورة متعاقبة :

فأولها : التعجب الوارد بصيغة الاستفهام من أعمالهم التي لا تمت الى الحلم بصلة فقد بدلوا نفس النعمة كفراً وجنوا على أنفسهم وعلى قومهم .

وثانيهما : الاستعارة في قوله ليضلوا عن سبيل الله ولم يكن ذلك غرضاً لهم ولكنه شبيه به لأنه نتيجة محتومة لاتخاذ الأنداد فهي استعارة تصريحية تبعية .

وثالثهما : حذف المقول من قوله « قل لعبادي الذين آمنوا الخ » وقد رد الحذاق على هذا الاعراب بقوله « وفي هذا الاعراب نظر لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم وخبر الله يجل عن الحلف وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الاعراب مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق ويقوى بوجهين لطيفين أحدهما ان هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالايمان الحق المنوه بايمانه عند الأمر كهذه الآية وغيرها مثل قوله تعالى « قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » و « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » والثاني تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون باضافتهم الى اسم الله تعالى وقد قالوا : إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين وخصوصاً إذا انضاف اليه تعالى اضافة التشريف والحاصل ان المأمور في هذه الآي من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة للطاعة فالخبر في أمثالهم حق وصدق اما على العموم إن أريد أو على الغالب .

ورابعها : التأكيد الذي جعل الخبر انكارياً بقوله « إن الانسان لظلوم كفار » فقد اشتملت هذه الآية على أربعة تأكيدات أولها « ان » وثانيها « اللام المزحلقة أو لام التأكيد » وصيغة « ظلوم » وصيغة « كفار » .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

اللغــــة :

(واجنبني) : أهل الحجاز يقولون : جنبني شره بالتشديد وأهل نجد جنبني وأجنبني والمعنى أدمنا وثبتنا على اجتناب عبادتها ، ويقال جنبه الشر وأجنبه إياه ثلاثياً ورباعياً وهي لغة نجد وجنّبه إياه مشدداً وهي لغة الحجاز وهو المنع وأصله من الجانب ، وقال الراغب : « وقوله تعالى وأجنبني وبني من جنبته عن كذا أي أبعدته منه وقيل من جنبت الفرس وكأنه سأله أن يبعـده عن جانب الشرك بألطاف منه وأسباب خفية وأن نعبد على حذف حرف الجر أي عن أن نعبد » وفي القاموس : « والجنب محركة أن يجنب فرساً الى فرسه في السباق فاذا فتر المركوب تحول الى المجنوب » وفي المصباح : « وجنبت الرجل الشر جنوباً من باب قعد أبعدته عنه وجنبته بالثقيل مبالغة » وفي المختار : وجنبه الشيء من باب نصر وجنّبة الشيء تجنيباً بمعنى أي نحاه عنه ومنه قوله تعالى : « واجنبني وبنيّ أن نعبد الاصنام » وقال أبو علي : ويقال جنبت فلاناً الخير ، أي نحيته عنه وجنبته أيضاً بالتثقيل . قال أبو نصر : والتخفيف أجود قال الله تعالى : « وأجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام » .

(تهوي اليهم) : تميـل وتحن وتطـير شوقاً نحوهم وأصله أن يتعدى باللام وإنما تعدى بإلى لأنه تضمن معنى تميل قال في الاساس : وهوى الى الجبـل وهوى الجبل صعده هُوِياً قال أبو بكر الهـذلي يصف تأبط شراً :

وإذا رميت به الفجاج رأيتـه يهوى مخارمها هوي الأجدل

أي اذا قذفته في نواحي الأمكنة المتشعبة رأيتـه يهوى مخارمها أي يسرع في سلوك مسالكها الضيقة كهوي الأجدل وهو الصقر أي كاسراعه في الطيران » .

الاعراب :

(وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً) إذ ظرف زمان لما مضى متعلق باذكر وجملة قال مضاف اليها الظرف وابراهيم فاعل ورب منادى محذوف منه حرف النداء مضاف الى ياء المتكلم المحذوفة واجعل فعل دعاء وفاعله مستتر تقديره أنت وهذا مفعوله الأول والبلد بدل من اسم الاشارة وآمناً مفعول به ثان . (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) واجنبني فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعوله وبني عطف على الياء أومفعول معه وان نعبد ان وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض كما قال الراغب أي عن أن نعبد والجار والمجرور متعلقان باجنبني والاصنام مفعول به لنعبد. (رب انهن أضللن كثيراً من الناس) رب منادى محذوف منه حرف النداء وقد تقدم نظيره وان واسمها وجملة أضللن خبر إن والضمير يعود على الاصنام والمراد بالدعاء طلب الثبات والدوام على ذلك وكثيراً مفعول به ومن الناس صفة لكثيراً وجملة إنهن تعليلية لقوله واجنبني . (فمن تبعني فإنه مني) الفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ وتبعني فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والنون للوقاية والياء مفعول به فانه الفاء رابطة لجواب الشرط وان واسمها ومني خبرها والجملة فيمحل جزم جواب الشرط والفعل وجوابه خبرمن. (ومن عصاني فإنك غفور رحيم) جملة معطوفة على نظيرتها . (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) تكرر النداء لتأكيد الابتهال والتضرع وان واسمها وجملة أسكنت خبرها ومن ذريتي متعلقان بمحذوف صفة لمفعول أسكنت المحذوف أي أسكنت ذرية من ذريتي ومن للتبعيض ، بواد جار ومجرور متعلقان بأسكنت

وغير صفة لواد وذي مضاف لغير وزرع مضاف لذي وعند بيتك الظرف صفة لواد والمحرم صفة لبيتك وسيأتي تفصيل هذا الاسكان في باب الفوائد (ربنا ليقيموا الصلاة) كرر نداء ربنا تأكيداً للابتهال • وليقيموا اللام لام التعليل وهي متعلقة بأسكنت أي أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم أي العظيم الحرمة ويعمروه بذكراك وعبادتك • (فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم) الفاء الفصيحة واجعل أفئدة فعل دعاء ومفعول به ومن الناس صفة لأفئدة أي قلوباً وجملة تهوي مفعول به ثان لاجعل واليهم متعلقان بتهوي • (وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) وارزقهم عطف على اجعل ومن الثمرات متعلقان بارزقهم أي بعض الثمرات فمن للتبعيض ولعل واسمها وجملة يشكرون خبرها • (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) تكرير النداء لتكرير الابتهال ودليل التضرع واللياذ بالله تعالى • وان واسمها وجملة تعلم خبرها وما مفعول تعلم وجملة نخفي صلة وما نعلن عطف على ما نخفي • (وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى تصديقاً لابراهيم أو من كلام ابراهيم • وما نافية ويخفى فعل مضارع وعلى الله جار ومجرور متعلقان بيخفى ومن زائدة وشيء مجرور بمن لفظاً فاعل محلاً وفي الارض صفة لشيء ولا في السماء عطف على في الأرض • (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق) الحمد مبتدأ ولله خبر والذي نعت لله وجملة وهب صلة ولي متعلقان بوهب وعلى الكبر في محل نصب حال وعلى بمعنى مع كقول الشاعر :

إني على ما ترين من كبري　　　أعلم من حيث تؤكل الكتف

واسماعيل مفعول به واسحق عطف عليه • (إن ربي لسميع الدعاء) إن واسمها واللام المزحلقة وسميع الدعاء خبرها والجملة تعليل لقوله وهب لي على الكبر • (رب اجعلني مقيم الصلاة) اجعلني فعل دعاء والياء مفعوله الأول ومقيم الصلاة مفعوله الثاني أي مستمراً عليها •
(ومن ذريتي ربنا وتقبل دعائي) ومن ذريتي عطف على ياء المتكلم أي واجعل بعض ذريتي مقيم الصلاة وهذا الجار في الحقيقة صفة لذلك المفعول المحذوف أي وبعضاً من ذريتي ، وربنا منادى وتقبل عطف على ما تقدم ودعائي مفعول به وحذفت الياء مراعاة للفواصل • (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) اغفر فعل دعاء ولي متعلقان باغفر ولوالدي وللمؤمنين عطف على لي ويوم ظرف زمان متعلق بمحذوف حال أي حال كون الغفران في ذلك اليوم العصيب وسيأتي مزيد بحث حول قيام الحساب في باب البلاغة•

البلاغة :

هذه الآيات مجموعة رائعة من الابتهالات التي تغرق نفس المؤمن في سبحاتها وتذوب في بحرانها الجميل ، وقد انطوت على مجموعة من الفنون البلاغية نوجزها فيما يلي :

١ ــ المجاز العقلي في اسناد الاضلال للاصنام وهي جمادات أو مجاز مرسل والعلاقة هي السببية لأنها سبب الاضلال •

٢ ــ الطباق بصورة متعددة كقوله تعالى « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن » و « وما يخفى عليه من شيء في الأرض ولا في السماء » •

٣ ــ الاستعارة في قولــه « يوم يقوم الحساب » أي يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل والدليل عليه قولهم : قامت الحرب علــى ساقها ونحوه ولك أن تجعله مجازاً مرسلاً علاقته المحلية مثــل واسأل القرية •

الفوائــد :

قصة اسكان ابراهيم ذريته :

روى التاريــخ أن هاجر كانت جارية لسارة فوهبتهــا لابراهيم فولدت منه اسماعيل فغارت سارة منهما لأنها لم تكن قد ولــدت قط فأنشدته الله أن يخرجها من عندها فأمره الله تعــالى بالوحي أن ينقلها الى أرض مكة فأتى من الشام ووضعها في مكة ورجع من يومه فتبعته هاجر فقالت أين تذهب وتتركني بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء فلم يلتفت فقالت : آلله أمرك بذلك ؟ قال : نعم ، فقالت : إذن لا يضيعني ثم رجعت فانطلق ابراهيم ثم رفع يديه الى السماء وتلا الابتهالات التي عبر الله عنها بآياته الرائعة وترك عندها جراباً من تمر وسقاء من ماء فلما نفد الماء عطشت هي وابنها فجاء جبريل وضرب موضع زمزم بعقبه أو جناحه فخرج المــاء فجعلت تشرب منه فمكثوا كــذلك حتى مرت بهم قبيلة من جرهم كانوا ذاهبين الى الشام فعطشوا فرأوا الماء عندها فقالوا لها : تأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت نعم ولكن لا حق لكم في المــاء قالوا نعم وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم فلما شب اسماعيل تعلم منهم العربية وكان أنفسهم وأعجبهم فزوجوه امرأة منهــم وماتت أمه بعــد ما تزوج الى آخر هذه القصة التي تحتاج الى القلم المبــدع ليحيك منها المسرحية الخالدة •

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

اللغـــة :

(مهطعين) : مسرعين الى الداعي وقيل : الاهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف وفي المختار : « اهطع الرجل إذا مدّ عنقه وصوب رأسه ، وأهطع في عدوه أسرع » وفي الأساس : « بعير مهطع : في عنقه تصويب وقيـل : هو المسرع وقد أهطـــع في سيره واستهطع وقال :

تعبَّدني نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع

وقال آخر يصف ثوراً :

بمستهطـع رَسْل كأنّ زمامـــه

بِقَيدوم رَعْنٍ منْ رُضام ممتّع

(مقنعي رءوسهم) : الإقناع رفع الرأس وإدامة النظر من غـير التفات إلى غيره . وفي القاموس « وأقنعه أرضاه ورأسه نصبه ورفعه أو لا يلتفت يميناً ولا شمالاً وجعل طرفه موازياً » وقيـل الاقناع من الاضداد يكون رفعاً وخفضاً ، « مقنعي رءوسهم » رافعيها .

(الطرف) : في الأصـل مصدر والطرف أيضاً : تحريك الجفن قال جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيـين قتـلانا

يصرعن ذا اللب حتى لاحراك وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

(مقرنين): قرن بعضهم مع بعض أقرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين.

(الأصفاد) : القيود وقيل الأغلال وانشد لسلامة بن جندل :

وزيد الخيل قد لاقى صفادا يعضّ بساعدٍ وبعظم ساق

وهو جمع صَفَد يقال صفده يصفده صفداً من باب ضرب قيده وصفّده مشدداً للتكثير ومن أقوالهم « الصَّفَد صَفَد » أي العطاء قيد ومن المجاز صفّدته بكلامي تصفيداً إذا غلبته ، وقال عمرو ابن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفّدينا

(قطران) : القطران فيه ثلاث لغات : قطران بفتح القاف وكسر الطاء وقطران بزنة سكران وقطران بكسر القاف وسكون الطاء بزنة سرحان وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحره وحدته ، والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وقد يستسرج به وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وفي المنجد : « القَطْران والقِطْران والقَطِران : سيال دهني يتخذ من بعض الاشجار كالصنوبر والأرز ».

الاعراب :

(ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون) الواو استئنافية ولا ناهية وتحسبن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد

الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ولفظ الجلالة مفعول به أول وغافلاً مفعول به ثان وعما متعلقان بغافلاً وجملة يعمل الظالمون صلة . (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) الجملة مستأنفة أيضاً مسوقة لتعليل النهي السابق وانما كافة ومكفوفة ويؤخرهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وليوم متعلق بيؤخرهم وجملة تشخص صفة ليوم وفيه متعلقان بتشخص والأبصار فاعل والمعنى لا تستقر في أماكنها من هول ما ترى . (مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتدّ اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) مهطعين ومقنعي رءوسهم حالان من المضاف المحذوف إذ التقدير أصحاب الأبصار أو تكون الأبصار دلت على أصحابها فجاءت الحال من المدلول عليه وجملة لا يرتد اليهم طرفهم حال ثالثة من الضمير في مقنعي رءوسهم ويجوز أن تكون مستأنفة وأفئدتهم الواو للحال أيضاً ، وأفئدتهم هواء مبتدأ وخبر والجملة حال رابعة ويجوز أن تكون الواو استئنافية والجملة مستأنفة . (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) وأنذر عطف على قوله ولا تحسبن والناس مفعول به أول ويوم مفعول به ثان لا مفعول فيه كما يتوهم للوهلة الاولى على حذف المضاف أي أنذرهم أهواله وعظائمه إذ لا إنذار في ذلك اليوم وإنما الانذار يقع في الدنيا وجملة يأتيهم العذاب مضافة للظرف ويأتيهم فعل ومفعول به والعذاب فاعل مؤخر . (فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) الفاء عاطفة ويقول عطف على يأتيهم والذين فاعل وجملة ظلموا صلة وربنا منادى مضاف وأخرنا فعل وفاعل مستتر ومفعول به والى أجل متعلقان بأخرنا وقريب صفة ونجب جزم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر تقديره نحن ودعوتك مفعول به . (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) الهمزة للاستفهام التوبيخي التقريري والواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب

وجزم وتكونوا مضارع ناقص مجزوم بلم والواو اسمها والجملة مقول القول محذوف أي فيقال لهم هذا القول توبيخا وتقريعاً ، وجملة أقسمتم خبر تكونوا وما نافية حجازية أو تميمية ولكم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وزوال اسم ما أو مبتدأ مؤخر محلاً مجرور بمن لفظاً والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وجاءت بلفظ الخطاب مراعاة لقوله أقسمتم • (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) وسكنتم عطف على أقسمتم وهو فعل وفاعل وفي مساكن جار ومجرور متعلقان بسكنتم والذين مضاف لمساكن وجملة ظلموا صلة وأنفسهم مفعول به • (وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال) وتبين عطف على ما تقدم والفاعل مقدر على منطوق الجملة أي حالهم وذلك بالاخبار والمشاهدة ولكم متعلقان بتبين وكيف مفعول مطلق أي أيّ فعل فعلنا بهم ولك أن تعربها حالاً ولا يصح أن تكون فاعلاً لتبين لأن اسم الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وله الصدارة وفعلنا فعل وفاعل وبهم متعلقان بفعلنا، وضربنا : لك أن تعطفه على تبين ولك أن تجعله مستأنفاً وضربنا فعل وفاعل والأمثال مفعول به ولكم متعلقان بضربنا • (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم) الواو عاطفة وقد حرف تحقيق ومكروا فعل وفاعل ومكرهم مفعول مطلق والواو حالية وعند الله ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ومكرهم مبتدأ مؤخر والهاء مضاف اليه وهي إما هاء الفاعل فيكون المعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر أعظم ويجوز وإن نافية وكان فعل ماض ناقص ومكرهم اسمها واللام لام الجحود الذي يستحقونه يأتيهم من حيث لا يشعرون والأول أولى لتلاؤمه مع هاء مكرهم الأولى • (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) الواو عاطفة وإن نافية وكان فعل ماض ناقص مكرهم اسمها واللام لام الجحود وتزول فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود والجار

والمجرور خبر كان ومنه متعلقان بتزول والجبال فاعل والمعنى ولن تزول الجبال بمكرهم وسيأتي معنى ضرب المثل بالجبال في باب البلاغة. (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) عطف تفريعي على ولا تحسبن ولا ناهية وتحسبن مجزوم محلاً بلا الناهية ولفظ الجلالة مفعول به ومخلف مفعول ثان لتحسبن وهو اسم فاعل ووعده مضاف الى مخلف وهو المفعول الثاني لمخلف ورسله هو المفعول الاول لمخلف والاصل مخلف رسله وعده ولكنه قدم الوعد لأهميته وإيذاناً منه بأنه لا يخلف الوعد أصلاً . (إن الله عزيز ذو انتقام) ان واسمها وخبرها وذو انتقام خبر ثان لها . (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) يوم الظرف بدل من يوم يأتيهم العذاب أو متعلق بمحذوف أي اذكر يوم وجملة تبدل مضاف اليها الظرف وتبدل فعل مضارع مبني للمجهول والأرض نائب فاعل وغير الأرض مفعول تبدل الثاني والسموات عطف على الارض أي تتغير معالمهما على حد قوله :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم
ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

وفي المطولات أحاديث وأقوال عن تبدل الأرض والسموات لا بأس بالرجوع اليها . (وبرزوا لله الواحد القهار) عطف على تبدل فهو ماض بمعنى المضارع ولله متعلقان ببرزوا والواحد القهار صفتان لله . (وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد) عطف على تبدل أيضاً والمجرمين مفعول به والرؤية هنا بصرية أي تراهم رؤية العين ويومئذ ظرف أضيف اليه ظرف وهو متعلق بتراهم ومقرنين حال من المجرمين وفي الأصفاد جار ومجرور متعلقان بمقرنين أو بمحذوف حال (سرابيلهم من قطران) الجملة حال ثانية أو جملة مستأنفة وسرابيلهم مبتدأ ومن قطران خبره

(وتغشى وجوههم النار) عطف على الجملة الحالية وتغشى فعل مضارع ووجوهم مفعول به مقدم والنار فاعل مؤخر • (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) اللام لام التعليل ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان ببرزوا والله فاعل وكل نفس مفعول به وما كسبت ما مفعول به ثان وجملة كسبت صلة • (إن الله سريع الحساب) ان واسمها وخبرها والجملة تعليلية لا محل لها • (هذا بلاغ للناس ولينذروا به) هذا مبتدأ وبلاغ خبر وللناس صفة ولينذروا معطوف على محذوف أي لينصحوا ويحذروا وبه متعلقان بينذروا • (وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الالباب) وليعلموا عطف على لينذروا وإنما كافة ومكفوفة وقد سدت مسد مفعولي يعلموا وهو مبتدأ وإله خبر وواحد صفة وليذكر عطف على ما تقدم وأولو الألباب فاعل •

البلاغة :

الاستعارة التمثيلية في قوله «وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال» فقد شبه بقوله لتزول منه الجبال مكرهم لتفاقمه وشدته ، وافتتانهم فيه . وبلوغهم الغاية منه وشبه شريعته وآياته وما أنزله على نبيه من تعاليم سامية ، وحجج بينة شبهها بالجبال في رسوخها وتمكنها من نفوس المؤمنين بها المتشبثين بأهدابها وهي من أرقى الاستعارات وأجملها وتزداد روعتها بأن صدور المكر المعدّ لإزالة الجبال صادر عن قوم جوف لا جدوى فيه ولا قوة لهم ، وهم في تقلبهم وخفتهم أشبه بالهواء اذ قال قبل ذلك « وأفئدتهم هواء » والهواء الخلاء والخواء الذي لم تشغله الاجرام فوصف به القلب فقيل قلب هواء إذا كان

فزوقة جباناً لا قوة في قلبه ولا جرأة ويقال للأحمق أيضاً قلبه هواء ، قال زهير بن أبي سلمى يصف ناقته :

كأن الرجل منها فوق صعل — من الظلمان جؤجؤه هواء

الصعل : المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس والظلمان جمع ظليم وهو ذكر النعام ، والجؤجؤ الصدر وجعل صدره فارغاً ليكون أسرع في السير الى طعامه ، والنعام مثل ي الجبن والخوف والحمق .

وقال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان قبل اسلامه :

ألا أبلغ أبا سفيان عني — فأنت مجوف نخب" هواء

بأن سيوفنا تركت عبيداً — وعبد الدار سادتها الإماء

هجوت محمداً فأجبت عنه — وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء — فشركما لخيركما الفداء

أمن يهجو رسول الله منكم — ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضي — لعرض محمد فيكم وقاء

والمجوف والنخب والهواء : خالي الجوف أو فارغ القلب من العقل والشجاعة ، وقد رمق شوقي في العصر الحديث هذا المعنى فاقتبسه لوصف الغيد العذارى بقوله :

فاتقوا الله في قلوب العذارى — فالعذارى قلوبهن هواء

الفوائــد :

معنى تبدل الارض غير الارض :

ننقل لك خلاصة كلام الامام الرازي في قوله تعالى « يوم تبدل الارض غير الارض » الى آخر الآية لأهميته ثم نعقب على هذا الكلام بكلمات لا تقل عنه أهمية . قال الرازي :

« اعلم أن التبديل يحتمــل وجهين أحدهما : أن تكون الارض باقية وتبدل صفتها بصفة أخرى والثاني أن تفنى الذات وتحدث ذات ثانية والدليل على أن اطلاق التبديل لإرادة التغيير في الصفة جائز انه يقال بدلت الحلقة خاتماً إذا أنت سويتها خاتماً فنقلتهــا من شكل الى شكل ومنه قوله تعالى « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » ويقال بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة الى صفة أخرى ويقال تبدل زيد إذا تغيرت أحواله ، أما ذكر التبديل عند وقوع المبدل في الذات فكقولك بدلت الدرهم دنانير ومنه قوله تعالى « بدلناهم جلوداً غيرها » وقوله : « وبدلناهم بجنتيهم جنتين » فإذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففي الآية قولان :

الاول : المراد تبديــل الصفة لا تبديل الــذات .... وقولــه والسموات أي وتبــدل السموات بانتثار كواكبهــا وانفطارها وتكوير شمسهاوخسوف قمرها وكورهافتارةتكونكالمهل وتارة تكونكالدهان.

القول الثاني : ان المراد تبديل الذات قال ابن مسعود تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة » انتهى كلام الرازي .

وقد علل الفلسوف الشيخ علاء الدين بن النفيس في رسالته التي عارض بها رسالة حي بن يقظان لابن الطفيل خراب هذه الدار وفساد هذا العالم وظهور الآيات فقال ما معناه ملخصاً : واذ قد ثبت أن ميل الشمس الى الشمال والجنوب يتناقص دائماً فإذا بطل هذا الميل أو قرب منه صارت الشمس دائمة المسامتة لخط الاستواء أو ما يقرب منه فلذلك تحدث حرارة شديدة جداً ويحدث في البقاع التي لها عرض بعيد برد مفرط فتفسد الأمزجة وتضعف القلوب ويكثر موت الفجأة وتسوء الأخلاق فتفسد المعاملات وتكثر الشرور والمخاصمات وتكثر الحروب والفتن ويتقدم الاشرار وتفسد الأذهان ، وبفسادها تبعد الناس عن قبول العلوم والحكمة » الى أن يقول : « واذا دام فقدان ميل الشمس مدة أفرط الخروج عن الاعتدال حتى أفسد الأمزجة الحيوانية والنباتية وكان من ذلك القيامة » انتهى كلام ابن النفيس .